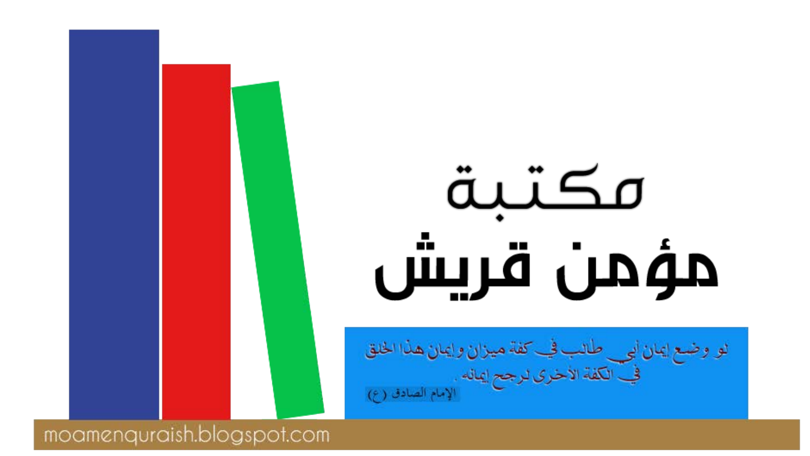


السيد حسن النمر

[الصائغ الموسوي]

دار الولاء

بيروت - لبنان


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

قراءة أخلاقية
للنهضة الحسينية



لبنان - بيروت - برج البراجنة - الرويس - شارع الرويس
تلفاكس: 00961 1 545133 - 00961 3 689496 - ص.ب. 307/25
www.daralwalaa.com - info@daralwalaa.com - daralwalaa@yahoo.com

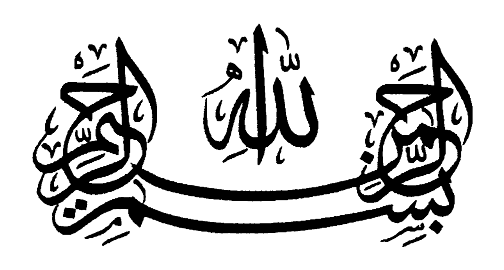
ISBN 978-614-420-154-1

اسم الكتاب: قراءة أخلاقية للنهضة الحسينية
المؤلـــف: السيد حسن النمر (الصائغ الموسوي)
الناشـــر: دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعـــة: الأولى - بيروت ٢٠١٤م - ١٤٣٥هـ

قراءة أخلاقية
للنهضة الحسينية

السيد حسن النمر
الصائغ الموسوي

دار الولاء
بيروت - لبنان


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلق والمرسلين محمد المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين؛ لا سيما سبطه الشهيد الفاتح الحسين بن علي، جعلنا الله من المتحلِّين بأخلاقه، والسائرين على دربه، والآخذين بثأره مع إمام هدى منصور من أهل بيته.

١ ـ بين يدي البحث

هذه أسطر قليلة كتبتها استجابةً لدعوةٍ كريمةٍ تلقيتُها من منظِّمي الملتقى الحسيني في موسمه الثاني، بعد أن فاتني شرفُ تلبيةِ دعوتِهم إياي في الموسم الأول الذي عقد في العام الماضي ١٤٣٠هـ في مدينة القطيف المحروسة. كتبتُها لمعالجة زاويةٍ؛ وأنا مِن دون شكٍّ لستُ السبَّاقَ في معالجتها؛ فقد سبقني إلى ذلك كثيرون؛ عبر كتب أو

مقالات أو خطب دونت وألقيت في ما يتعلق بشؤون هذه النهضة المباركة.

وبعد بقاء هذه الأوراق في الأدراج سنين عديدة أضفت إليها شيئاً مما لابد من إضافته، لتكتمل بها دواعي نشرها؛ برجاء أن يكون ذلك مفيداً للقراء وسبباً للأجر والثواب لكاتبها.

والزاوية التي دار ولها هذا البحث هي (**البعد الأخلاقي في النهضة الحسينية**).

فلستُ ـ إذن ـ في بحثي هذا فاتحاً ولا مبتكراً، كما أن أوراقي هذه ليست دراسةً مستوعِبةً؛ إن أمكن الاستيعابُ لهذا البعد المترامي في أطرافه والعميق في طبيعته، خصوصاً في مثل النهضة الحسينية التي تتجدد في عطاءاتها مع امتداد الزمان والمكان، والتي لا يزال الدارسون لها ينهلون من مَعِينها ما يروي ظمأ المتعطشين للحقيقة والفضيلة.

٢ ـ دواعي البحث وأهميته

إن الذي دعاني، بل دفعني، إلى اختيار هذه الزاوية لتسليط الضوء عليها هو جملة من الأسباب، أقتصر منها على ما يلي:

أولاً: ما تعانيه ساحتُنا من خللٍ بيِّنٍ وتصدُّعٍ واضحٍ على مستوى الالتزام الأخلاقي بمعناه الواسع؛ أي الشامل

للعلاقة مع الله ومع الذات ومع الآخَر، من دون فرق بين الغريب والقريب.

وقد شمل عدمُ الالتزام الأخلاقي؛ هذا، كلاً من الحالة الفردية الخاصة والحالة الاجتماعية العامة، حتى أصبح التخلفُ الأخلاقيُّ ـ للأسف الشديد ـ سمةً وطابعاً عاماً للفرد المسلم إلا مَن عصم الله. كلُّ ذلك على خلاف ما تقتضيه التربية الإسلامية الأصيلة والصحيحة، وعلى خلاف ما أراده إمامنا الحسين عليه السلام من نهضته؛ حيث جعل (الإصلاح) عنواناً عريضاً للنهضة بقوله «**إنما خرجتُ لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله**»[1]. ويخطئ ـ بالتأكيد ـ مَن يحسب أنه عليه السلام أراد خصوصَ الإصلاح السياسي، وإن كان هذا الإصلاح بالتحديد قد يعدُّ المفتاحَ لشتى جوانب الإصلاح الأخرى.

ثانياً: أن الإمام الحسين عليه السلام إنما نهض وضحَّى بالغالي والنفيس؛ حتى سُفك في نهضته دمُهُ الطاهرُ ودماءُ أنصاره، لأجل تحقيق أهداف سامية يأتي في صدارتها البعدُ الأخلاقيُّ.

ذلك أن الحسين عليه السلام هو الوارث الأكبر والأول لتراث

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٢٩؛ موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، ص٣٥٤. وفي مناقب آل أبي طالب (أطلب الإصلاح) [ج ٤، ص٨٩].

الأنبياء جميعاً(١)، وهؤلاء هم الذين اتفقت كلمتهُم على أن الخلُقَ الحسَنَ هو أصلٌ أصيلٌ في ما كُلِّفوا به من قِبَل الله

---

(١) هذه الوراثة هي ما أكدت عليها الزيارات المروية عن أهل البيت عليهم السلام؛ كالزيارة التي رواها الشيخ ابن قولويه في كتابه القيم كامل الزيارات، بإسناده قال: **دخل حنان بن سدير على أبي عبدالله [الصادق] عليه السلام؛ وعنده جماعة من أصحابه. فقال: يا حنان بن سدير! تزور أبا عبدالله [الحسين] عليه السلام في كل شهر مرة؟!**

قال: لا.

قال: ففي كل شهرين؟!

قال: لا!

قال: ففي كل سنة؟!

قال: لا!

قال: ما أجفاكم بسيدِكم.

قال: يا ابن رسول الله! قلة الزاد، وبعد المسافة.

قال: أ لا أدلكم على زيارة مقبولة؛ وإن بعد النائي؟!

قال: فكيف أزوره يا ابن رسول الله؟!

قال: اغتسِل يوم الجمعة؛ أو أي يوم شئت، والبَس أطهرَ ثيابك، واصعد إلى أعلى موضع في دارك؛ أو الصحراء، فاستقبل القبلة بوجهك؛ بعد ما تبين أن القبر هنالك، يقول الله تبارك وتعالى﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾. ثم قل: السلام عليك يا مولاي وابن مولاي، وسيدي وابن سيدي. السلام عليك يا مولاي، يا قتيل بن القتيل، الشهيد بن الشهيد. السلام عليك ورحمة الله وبركاته. أنا زائرك؛ يا ابن رسول الله، بقلبي، ولساني، وجوارحي، وإن لم أزرك بنفسي والمشاهدة. فعليك السلام يا وارث آدم صفوة الله، ووارث نوح نبي الله، ووارث إبراهيم خليل الله، ووارث موسى كليم الله، ووارث عيسى روح الله وكلمته، ووارث محمد حبيب الله ونبيه ورسوله، ووارث علي أمير المؤمنين وصي رسول الله وخليفته، ووارث الحسن بن علي وصي أمير المؤمنين...) [بحار الأنوار، ج٩٨، ص٣٦٨، أبواب فضل زيارة سيد شباب أهل الجنة أبي عبدالله الحسين صلوات الله عليه وآدابها وما يتبعها، باب ٣٢ ـ زيارته عليه السلام وسائر الأئمة صلوات الله عليهم حيهم وميتهم من البعيد].



تعالى، حتى قال خاتمهم وسيدهم محمد ﷺ **«إنما بُعثتُ لأتمم مكارمَ الأخلاق»**[1].

ولا يعقل أن يَرى وارثُ الأنبياء (عليه وعليهم السلام) وسبطُ الرسول الخاتم وحبيبُهُ هذا التراثَ تعبث به يد العدوان، حتى قال **«ألا ترون أن الحقَّ لا يُعمل به، وأن الباطلَ لا يُتناهى عنه»**[2]، ثم يقف متفرِّجاً دون أن يحرك ساكناً، فكان لابد من النهضة؛ لأنه لابد من تحسين الأخلاق.

ولقد جعل الإمامُ الحسينُ عليه السلام شعار نهضته مجموعةً من القيم الأخلاقية؛ الإيجابية مدافعاً عنها؛ كالإصلاح، والسلبية مناهضاً لها؛ كالظلم.

ولعل ما جاء في زيارته عن الإمام الصادق عليه السلام؛ من وصفه بأنه **«صادق، وصديق، صدقت ونصحت في ما أتيت به... وأنك طهرٌ طاهرٌ، من طهرٍ طاهرٍ، قد طهُرت بك البلادُ، وطهرت أرضٌ أنتَ فيها»**[3]، يكشف عن الطبيعة

---

(١) الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، مادة (الأخلاق)؛ السنن الكبرى للبيهقي، باب: بيان مكارم الأخلاق...، الحديث (٢٠٧٨٢).

(٢) الطبري، تاريخ الطبري، ج٥، ص٤٠٤، طبعة مؤسسة الأعلمي؛ تحف العقول لابن شعبة الحراني، باب ما روي عن الإمام الحسين عليه السلام، قصار ما روي عنه من المعاني، ص٢٤٥.

(٣) ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات، الباب ٥٩ (الزيارات)، الحديث ٦٣٣، ص٣٨٦ ـ ٣٨٨.

الأخلاقية للنهضة الحسينية على مستوى شخص القائد ودواعيه وغاياته.

ثالثاً: أن الإصلاح الأخلاقي هو الركن الركين لأي نهضةٍ حقيقيةٍ؛ فلا يُتصوَّر صلاحُ أمةٍ بغيرِ صلاحِ أخلاقها، وكلما فسدت الأخلاقُ نقصَ من جوانب النهضة بقدره. وصدق الشاعر أحمد شوقي حيث يقول:

وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوْا

وما نجده لدى الأمم ـ قاطبةً ـ من وجوه التنمية والرقي فهو توأمٌ وقرينٌ لوجوهٍ من الصلاح الأخلاقي اتسموا بها، اقتران المسبَّب بالسبب.

فسيادة القانون العام ـ مثلاً ـ ترتبط بشكلٍ خاصٍّ وأكيدٍ بروح الانضباط؛ التي هي فضيلةٌ أخلاقيةٌ، فإذا انعدمت هذه الروحُ في أمة من الأمم، أيِّ أمةٍ، فشا فيها وجوهٌ من الفساد تتناسب مع عدم احترام القانون بكل ما يترتب عليه من تخلُّفٍ.

ولو أردنا أن نعرف ما الذي حصل في مسيرة المسلمين؛ بمجرد أن غاب عنهم خاتم النبيين ﷺ، وكيف حصل ذلك؟ فلنقف على بعض النصوص كشواهد على ما نقول:

الشاهد الأول: ما رواه بعض المؤرخين من مقولةٍ شهيرةٍ صدرت من عمر بن الخطاب؛ وهو بصدد تقييم الشخصيات المطروحة لتولي أمر الخلافة من بعده، وبعد أن ذكر

خصائصَ بعض المرشحين، أخذ فيها بالحديث عن الإمام علي عليه السلام، فأشار إلى أنهم لو قبلوا توليه لَـ(**سلك بهم الطريقَ**) في روايةٍ[1]، أو (**يحملهم على الحقِّ؛ وإن حمل السيفَ على عاتقه**) في روايةٍ أخرى[2]، أو (**يسلك بهم الطريقَ المستقيمَ**) في روايةٍ ثالثةٍ[3]، أو (**إن أحراهم أن يحملهم على كتاب ربهم وسنةِ نبيهم لصاحبُك. واللّهِ! لئن وليَها ليحملنَّهم على المحجة البيضاء والصراط المستقيم**) في روايةٍ رابعةٍ[4].

فهو ـ إذن ـ يقر؛ **أولاً**، في هذه المقولة بكفاءة الإمام علي عليه السلام.

بل إنه يقر؛ **ثانياً**، بتميزه عمن سواه؛ ولذلك خصه بالذكر، وأشاد به من بين مَن سُمِّي مرشحاً لتولي الخلافة.

---

(١) ابن سعد، محمد (ت ٢٣٠ هـ)، الطبقات الكبرى، ذكر استخلاف عمر، ج٣، ص٣٤٢، تحقيق إحسان عباس.

(٢) أبو عمر يوسف بن عبدالله القرطبي (ت ٤٦٣ هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، الناشر دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م، ترجمة علي بن أبي طالب، ج٣، ص١١٣٠.
ابن عدي، الجرجاني، الكامل في ضعفاء الرجال، ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود ـ علي محمد معوض، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م ج٦، ص٦٩، ضمن ترجمة عمر بن عبدالله.

(٣) الطبري، محب الدين (المتوفى سنة ٦٩٤ هـ)، الرياض النضرة في مناقب العشرة، ج٢، ص٤١١، الباب الثاني، الفصل الحادي عشر.

(٤) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، شرح الخطبة ٨٣، فصل في شرح ما نسب إلى عليٍّ من الدعابة، ج٦، ص٣٢٧، ط. دار إحياء التراث العربي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

كما أنه يقر؛ **ثالثاً**، بأن مسيرة المسلمين ليست على ما ينبغي أن تكون عليه.

وهو يقر؛ **رابعاً**، أن المسلمين لم يكونوا راغبين بشكلٍ أكيدٍ وحاسمٍ أن يسيروا بسيرة النبي ﷺ، والتي لن تحصل بغير صاحبِ المحجة البيضاء الذي هو علي عليه السلام[1].

الشاهد الثاني: ما رواه البخاري في باب تضييع الصلاة؛ من صحيحه، حيث قال: حدثنا عمرو بن زرارة، قال أخبرنا عبد الواحد بن واصل أبو عبيدة الحداد، عن عثمان بن أبي رواد؛ أخي عبدالعزيز، قال: سمعت الزهري يقول: **دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي! فقلت: ما يبكيك؟! فقال: لا أعرف شيئاً مما أدركتُ إلا هذه الصلاةَ، وهذه الصلاةُ قد ضُيِّعت)**[2].

---

(١) وهذا ما قاله ـ صادقاً ـ عن نفسه عليه السلام؛ في سياق حديثه عن معاناته مع من ساومه على البيعة قبل النكث: ...**لم يجدوا عندي إلا المحجةَ البيضاءَ، والحملَ على كتاب الله عز وجل، ووصيةَ الرسول (صلى الله عليه وآله)...**). الخصال للشيخ الصدوق، وعنه بحار الأنوار، ج٣١، ص٣٤٧، كتاب المحن والفتن، الباب ٢٦ ـ باب الشورى واحتجاج أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) على القوم في ذلك اليوم.

أما كونه عليه السلام على المحجة البيضاء، وأنه الحامل عليها، فهو ما رُوي مستفيضاً عن النبي (صلى الله عليه وآله) في حقه عليه السلام. فقد روى الحافظ أبو نعيم؛ بطرق ثلاثة؛ اثنان منها عن علي عليه السلام، وواحدٌ منها بإسناده عن حذيفة بن اليمان أنه قال: **قال رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم): إن تستخلفوا علياً؛ وما أراكم فاعلين، تجدوه هادياً مهدياً، بحملكم على المحجة البيضاء)** [حلية الأولياء، ج١، ص٦٤، ترجمة علي بن أبي طالب عليه السلام].

(٢) في رواية أخرى تبيِّن حجم الانحراف عن نهج الرسول ﷺ بما يعزز ما ذكره=

فالحديثُ ظاهرٌ وواضحٌ في دلالته على مستوى الانحراف الذي وقعت فيه الأمةُ؛ حتى أنه لم يبق مما ورثته الأمةُ من رسولها ﷺ ـ حسب الراوي ـ إلا هذه الصلاة، وحتى هذه الصلاة قد أصابها ما أصاب غيرَها من التضييع؛ مع أن (**الصلاة عمود الدين**)[1].

ودلالةُ الخبر واضحةٌ على ما ذكرناه من انحراف؛ حتى مع حمل القائل على المبالغةِ والتشاؤمِ، أو المثاليةِ[2].

=أنس بن مالك، علماً أن الشاكيَ في الروايتين واحدٌ، قال الزهري: **دخلتُ على أنس بن مالك رضي الله عنه بدمشق وهو يبكي. فقلتُ: يا أبا حمزة ما يبكيك؟! فقال: واللهِ! ما أعرف شيئاً؛ مما كنا عليه؛ إلا لا إله إلا الله**) [الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم، الحديث ٢٢٢٩، ج٤، ص٢٣٧، نشر دار الراية ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م، تحقيق د باسم فيصل الراية].

(١) الأمالي للشيخ الطوسي، ص٥٢٩؛ كنز العمال، الحديث ١٨٨٩٠، ج٧، ص٢٨٤، «أبو نعيم الفضل بن دكين في الصلاة عن عمر»؛ وفي كشف الخفاء ـ ت هنداوي، ج٢، ص٣٥: رواه أبو نعيم عن بلال بن يحيى قال: «جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه [وآله] وسلم) يسأله عن الصلاة، فقال: **الصلاة عمود الدين**»، وهو مرسل ورجاله ثقات).

(٢) تزداد أهمية الرواية مع ملاحظة أن صاحبها لم يكن من المحسوبين على المعارضة الهاشمية لمشروع السلطة؛ فإن أنساً هذا هو واحدٌ ممن كتم الشهادة بما جاء في حق علي عليه السلام لما استشهده وآخرين في الرحبة؛ في القضية المعروفة بـ(حديث المناشدة) والتي فصلها الشيخ الأميني في الغدير؛ فراجع الجزء ١ منه.

وقد عقد ابن أبي الحديد فصلاً بعنوان (ذكر المنحرفين عن علي)، جاء فيه: وذكر جماعة من شيوخنا البغداديين أن عدة من الصحابة والتابعين والمحدثين كانوا منحرفين عن علي عليه السلام، قائلين فيه السوء، ومنهم من كتم مناقبه وأعان أعداءه ميلاً مع الدنيا، وإيثاراً للعاجلة، فمنهم أنس بن مالك. ناشد علي عليه السلام الناس في رحبة القصر ـ أو قال رحبة الجامع بالكوفة ـ: أيكم سمع رسول الله=

ولا يفوتنا التنويهُ إلى أن ما ذكره هذا الراوي لا يبعد القول إنه (حقيقة تاريخية)؛ لا يسوغ التشكيكُ فيها بعد أن استفاض نقلها. وباعتبار ذلك شديد الارتباط بما نحن بصدد الحديث عنه؛ وهو النهضة الحسينية، فلا بأس بتعزيز هذه المقولة بتوثيقها بعدد من النصوص:

أ ـ روى أحمد بسنده عن حذيفة أن النبي ﷺ قال:

«أحصوا لي كم يلفظ الإسلام؟

قلنا: يا رسول الله! أتخاف علينا ونحن ما بين الست مائة إلى السبع مائة؟

=صلى الله عليه [وآله] وسلم يقول: (من كنت مولاه فعلي مولاه)؟ فقام اثنا عشر رجلاً فشهدوا بها، وأنس بن مالك في القوم لم يقم، فقال له: يا أنس، ما يمنعك أن تقوم فتشهد، ولقد حضرتها! فقال: يا أمير المؤمنين، كبرت ونسيت! فقال: اللهم إن كان كاذباً فارمه بها بيضاء لا تواريها العمامة قال طلحة بن عمير: فوالله لقد رأيت الوضح به بعد ذلك أبيض بين عينيه) [شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٧٤].

وفي حلية الأولياء بإسناده عن عميرة بن سعد، قال: شهدتُ علياً على المنبر ناشد أصحابَ رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) وفيهم: أبو سعيد، وأبو هريرة، وأنس بن مالك، وهم حول المنبر، وعليٌّ على المنبر، وحول المنبر اثنا عشر رجلاً، هؤلاء منهم، فقال عليٌّ: نشدتكم باللهِ، هل سمعتم رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) يقول: من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه؟ فقاموا كلهم فقالوا: اللهم نعم. وقعد رجلٌ، فقال: ما منعك أن تقوم؟ قال: يا أمير المؤمنين، كبرت ونسيت! فقال: «اللهم إن كان كاذباً فاضربه ببلاءٍ حسنٍ، قال: فما مات حتى رأينا بين عينيه نكتة بيضاء لا تواريها العمامة» [حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٥، ص٢٦ ـ ٢٧].

وممن ذكر ذلك البلاذريُّ في أنساب الأشراف، في (نبذة من أقوال علي بن أبي طالب وسيرته)، ج٢، ص١٥٦ ـ ١٥٧.

قال: فقال: إنكم لا تدرون، لعلكم أن تبتلوا»

قال [الراوي]: «فابتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سراً»[1].

ب ـ روى أحمد بن حنبل، وقال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمشُ، عن سالم، عن أم الدرداء، قالت: دخل عليها يوماً أبو الدرداء مغضباً! فقالت: ما لك؟!

«فقال: واللهِ! ما أعرف شيئاً من أمر محمد صلى الله عليه [وآله] وسلم إلا أنهم يصلون جميعاً»[2].

---

(1) مسند أحمد، ج٣٨، ص٢٩٥، الحديث ٢٣٢٥٩.
وذكر محققو الكتاب في تخريجه ـ أسفل الصفحة ـ ما نصه:
إسناده صحيح على شرط الشيخين. شقيق: هو ابن سلمة الأسدي أبو وائل الكوفي.
وأخرجه ابن أبي شيبة ١٥/ ٦٩، ومسلم (١٤٩)، وابن ماجه (٤٠٢٩)، والبزار في «مسنده» (٢٨٦٨)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨٧٥)، وأبو عوانة (٢٩٩)، وابن حبان (٦٢٧٣)، وابن منده في «الإيمان» (٤٥٣) من طريق أبي معاوية، بهذا الإسناد.
وأخرجه البخاري (٣٠٦٠)، وابن منده (٤٥٢)، والبيهقي ٦/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤، والبغوي (٢٧٤٤) من طريق سفيان الثوري، والبخاري بإثر الحديث (٣٠٦٠)، وأبو عوانة (٣٠٠) من طريق أبي حمزة، والبزار (٢٨٦٩) من طريق سليمان بن قَرْم، ثلاثتهم عن سليمان الأعمش، به.
قوله: «كم يلفظ الإسلام» أي: كم عدد من يتلفظ بالإسلام) انتهى.

(2) مسند أحمد، ج٣٦، ص٣٠، الحديث (٢١٧٠٠).
وقال محققو الكتاب؛ في هامش الصفحة:
إسناده صحيح على شرط الشيخين. أبو معاوية: هو محمد بن خازم، والأعمش: هو سليمان بن مهران، وسالم: هو ابن أبي الجعد.
وهو عند أحمد في «الزهد» ص١٧٢. =

جـ ـ روى أحمد بن حنبل، وقال: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا محمد يعني ابن إسحاق، عن عبد الرحمن الأسود، عن أبيه، قال:

«دخلتُ أنا وعلقمة، على عبدالله بن مسعود بالهاجرة، فلما مالت الشمسُ، أقام الصلاةَ، وقمنا خلفه، فأخذ بيدي وبيد صاحبي، فجعلنا عن ناحيتيه، وقام بيننا، ثم قال: هكذا كان رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، يصنع إذا كانوا ثلاثة»، ثم صلى بنا، فلما انصرف قال: «إنها ستكون أئمةٌ يؤخرون الصلاةَ عن مواقيتها، فلا تنتظروهم بها، واجعلوا الصلاة معهم سبحةً»[1].

د ـ قال ابن وضاح: حدثني إبراهيم بن محمد بن عون، عن إسماعيل بن نافع القرشي، عن ابن المبارك قال: قال عبدالله بن عمرو بن العاص: **«لو أن رجلينِ من أوائل هذه**

=وأخرجه البخاري (٦٥٠) من طريق حفص عن الأعمش، بهذا الإسناد....) انتهى.

(١) مسند أحمد، ج٧، ص٣٦٤ ـ ٣٦٥، الحديث (٤٣٤٧).
وقال محققو الكتاب في تخريج الحديث؛ أسفل الصفحة، ما لفظه:
صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، محمد بن إسحاق صرح بالتحديث في الرواية الآتية برقم (٤٣٨٦)، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين. محمد بن عبيد: هو الطنافسي، وعبد الرحمن بن الأسود: هو ابن يزيد النخعي.
وأخرجه البيهقي في «السنن» ٣/ ٩٨ من طريق يعلى بن عبيد، عن ابن إسحاق، بهذا الإسناد.
وقوله: فجعلنا من ناحيتيه، وقام بيننا، تقدم بإسناد صحيح برقم (٣٩٢٧)) انتهى.

الأمة خليا بمصحفهما في بعض هذه الأودية لأبيا[1] الناسَ اليومَ، ولا يعرفان شيئاً مما كانا عليه»[2].

هـ ـ قال ابن وضاح: **«حدثني محمد بن وضاح قال: نا نعيم بن حماد، قال: نا عثمان بن يونس، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن حذيفة بن اليمان: أنه أخذ حجرين فوضع أحدَهما على الآخر ثم قال لأصحابه: هل ترون ما بين هذين الحجرين من النور؟**

قالوا: يا أبا عبدالله! ما نرى بينهما من النور إلا قليلاً.

قال: والذي نفسي بيده! لتظهرن البدعُ حتى لا يُرى من الحق إلا قدرَ ما ترون ما بين هذين الحجرين من النور، والله لتفشونَّ البدعُ حتى إذا تُرك منها شيءٌ قالوا: ترُكت السنة»[3].

و ـ روى مسند الشافعي، وقال: أخبرنا عبد المجيد، عن ابن جريج، أخبرني عبدالله بن عثمان بن خثيم، أن أبا بكر بن حفص بن عمر أخبره: أن أنس بن مالك قال: (صلى معاوية بالمدينة صلاة فجهر فيها بالقراءة فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ لأم القرآن؛ ولم يقرأ بها للسورة التي بعدها؛ حتى قضى تلك القراءة، ولم يكبر حين

---

(١) في كتاب الزهد والرقائق (لأتيا).

(٢) البدع لابن وضاح (ت ٢٨٦هـ)، ج٢، ص١٣٣، الحديث (١٨٤)، باب في نقض عرى الإسلام ودفن الدين.

(٣) البدع لابن وضاح (ت ٢٨٦هـ)، ج٢، ص١١٤، الحديث (١٥١).



يهوي؛ حتى قضى تلك الصلاةَ. فلما سلم ناداه من سمع ذلك من المهاجرين من كل مكان: يا معاوية! أسرقتَ الصلاةَ أم نسيتَ؟! فلما صلى بعد ذلك قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ للسورة التي بعد أم القرآن، وكبر حين هوى ساجداً)[1].

والعجيب أن سلوك قطاعٍ واسعٍ جداً من المسلمين اليوم؛ غير أتباع أهل البيت عليهم السلام، يوافق ما فعله معاويةُ، ويخالف ما تعالت من صيحات المسلمين منكِرين عليه مخالفته سنة النبي صلى الله عليه وآله.

ز ـ روى البخاري، وقال: حدثنا أبو النعمان، قال: حدثنا حماد، عن غيلان بن جرير، عن مطرف بن عبدالله، قال: صليت خلف علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنا وعمران بن حصين، «**فكان إذا سجد كبر، وإذا رفع رأسه كبر، وإذا نهض من الركعتين كبر**»، **فلما قضى الصلاةَ أخذ بيدي عمران بن حصين، فقال: «قد ذكرني هذا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم ـ أو قال: لقد صلى بنا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم ـ»**[2].

الشاهد الثالث: ما قاله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في عهده الذي أملاه لواليه على مصر مالك

(١) مسند الشافعي ـ ترتيب السندي، الباب السادس: صفة الصلاة، ج١، ص٨٠.
(٢) صحيح البخاري، الحديث (٧٨٦)، باب إتمام التكبير في السجود.

الأشتر، وجاء فيه: «**على الحاكم أن يحكم بما عنده من الأثر والسنة... فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار؛ يُعمل فيه بالهوى، وتطلب به الدنيا**»[1].

فالتحريف والتلاعب الشيطاني[2] بمعارف الدين وتعاليمه وأحكامه ـ إذن ـ كان هائلاً؛ بشهادة الموالين للسلطة الحاكمة والموالين لها من غير المتهمين، حتى لم يبق من الدين سوى أساسه؛ أي الصلاة، وهذه بدورها لم تسلم، وأما الحافظ لسنة النبي ﷺ والأمين عليها علماً وعملاً فهو الإمام علي عليه السلام.

الشاهد الخامس: ما جاء في زيارات الإمام الحسين عليه السلام المروية عن العترة الطاهرة، حيث جاء فيها وصف قتلته وخصومه بأوصاف تفرض على حامي الشريعة أن ينهض لحفظها.

فقد روى الشيخ ابن قولويه عن الإمام الصادق عليه السلام زيارةً لشهيد النهضة عليه السلام جاء فيها: « ...**وأشهد بالبراءة ممن تبرأتَ منه وبرئتَ منه رسلك. اللهم العن الذين كذبوا**

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٥٣. وعنه مستدرك وسائل الشيعة، ٤٢ ـ باب ما ينبغي للموالي العمل به، في نفسه، ومع أصحابه، ومع رعيته، ص١٤١.

(٢) وفقاً لما صرح به حبر الأمة ابن عباس، وكذلك يحيى بن جعدة، والزهري، حيث قال الأول: **سرق الشيطانُ من أئمة المسلمين آيةً من فاتحة الكتاب، أو قال من كتاب الله** ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الاستذكار لابن عبد البر ١/ ٤٦٠؛ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ٢٠ / ٢١١، ٢١٣].

رسولَك، وهدموا كعبتَك، وحرَّفوا كتابَك، وسفكوا دمَ أهل بيت نبيك، وأفسدوا عبادَك واستذلوهم...»[1].

وهي أوصاف تبين حجم ما كان يراه أهل البيت عليهم السلام من انحرافٍ وقع فيه أعداؤهم، ومقدار الكيد الذي أريد به حرفُ الإسلام عن مساره الرباني.

رابعاً: أن التحلِّيَ بالخلق الحسن في زمن الشدة يفوق في مداليله وأهميته التحلِّيَ به في زمن الرخاء؛ باعتبار أن الإنسان إذا ألـمَّت به شدةٌ قد يسوِّغ لنفسه الوقوعَ في ما لا يستسيغه الأسوياء في زمن الرخاء. ولا ريب في أن ما عاناه الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه (رضوان الله عليهم) من الشدائد لا يتحمله إلا أمثالهم، وقد سجَّل المؤرخون أن هذه الصفوة لم تحِد أبداً عن مقتضيات الأخلاق الحسنة.

وهذا ما يدل على أن حسن الخلق ـ في منطق النهضة الحسينية ـ ليس كمالاً فحسب بل هو ضرورةٌ مطلقةٌ من جهةٍ، وهو ممكنٌ للمعصوم ولغير المعصوم من جهةٍ أخرى.

هذه الأسباب؛ ونحوها، تؤكد ضرورةَ القراءات والمعالجات الأخلاقية لواقعنا الإسلامي الخاص والعام، بمستوى اهتمامنا بالقراءات والمعالجات الفكرية لها. وتشتد ضرورةُ هذا النوع من القراءات؛ أعني الأخلاقيةَ، في

(١) ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات، الباب ٥٩ (الزيارات)، الحديث ٦٣٣، ص٣٨٦ ـ ٣٨٨.

الأحداث الجِسام التي تُعتَبر محطاتٍ مفصليةً في التأثير على الأمة كالنهضة الحسينية الخالدة.

٣ ـ خطة البحث

لو تبصَّرنا في النهضة الحسينية لوجدناها نهضةً أخلاقيةً بامتياز، في جميع جوانبها؛ بدءً وانتهاءً، مروراً بتفاصيلها الصغيرة؛ من جميع من شارك فيها قائداً أو بطلاً مناصراً، ولا نستثني من ذلك النساء والأطفال؛ الذين أبدوا من التحمل للأذى والصبر على العدوان ما لا يحتمله إلا مؤمنٌ امتحن الله قلبه للإيمان، كما أبدوا من الثبات والاستقامة على القيم الأخلاقية الفاضلة ما يمكن عدُّهُ أحدَ أسباب خلود النهضة.

ولَمَّا كان طبيعةُ فعلِ النهضة يتوزع على مستويات ثلاثة هي:

أولاً: الدواعي والبواعث

ثانياً: الأهداف والغايات

ثالثاً: الفعل ورد الفعل

فسيكون بحثنا موزعاً على محاورَ ثلاثةٍ؛ ضمن فصولٍ بعددها؛ نتعرف في كلِّ فصلٍ على محور ـ وبإيجازٍ شديدٍ ـ يتناول أحدَ معالم البعد الأخلاقي للنهضة الحسينية الخالدة.

وسنمهِّد لذلك بالتعرُّف على مركزية القيم الأخلاقية في الفكر الحسيني، إيماناً منَّا بأن هذه النهضة المباركة لم تكن

ـ أبداً ـ وليدةَ موقفٍ مرتجلٍ، بل كانت مؤسسةً على قواعد ومبادئ فكريةٍ راسخةٍ في عقول ونفوس المشارِكين فيها ممن انتقاهم قائد النهضة بعنايةٍ فائقةٍ وغربلهم حتى آخر لحظة من حياتهم الدنيوية؛ فلم يبد منهم إلا ما جعلهم أهلاً لوصفه أهلَ بيته؛ ممن كان معه، بأنهم الـ(أبر)، والـ(أزكى)، والـ(أطهر)، وأصحابه بأنهم (خير أصحاب). وهي صفات أخلاقيةٌ؛ كما لا يخفى، تؤكد طبيعةَ النهضة وكينونةَ مَن انخرط فيها قيادةً وقواعدَ.

فقد روى الشيخ الصدوق؛ في الأمالي، أنه عليه السلام قام في أصحابه خطيباً، وقال في ما قال:... «**اللهم إني لا أعرف أهلَ بيتٍ أبرَّ، ولا أزكى، ولا أطهرَ من أهل بيتي، ولا أصحاباً هم خيرٌ من أصحابي. وقد نزل بي ما قد ترون وأنتم في حِلٍّ من بيعتي، ليست لي في أعناقكم بيعةٌ، ولا لي عليكم ذمةٌ. وهذا الليلُ قد غشِيكم فاتخذوه جملاً، وتفرقوا في سواده؛ فإن القومَ إنما يطلبوني، ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب غيري.**

فقام عليه عبدالله بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب عليه السلام؛ فقال: يا ابن رسول الله! ماذا يقول لنا الناسُ؛ إن نحن خذلنا شيخَنا وكبيرَنا وسيدَنا وابنَ سيد الأعمام وابنَ نبينا سيد الأنبياء، لم نضرب معه بسيفٍ، ولم نقاتل معه برمحٍ. لا واللهِ! أو نرد موردك، ونجعل أنفسَنا دون نفسك،

ودماءَنا دون دمك. فإذا نحن فعلنا ذلك فقد قضينا ما علينا، وخرجنا مما لزمنا.

وقام إليه رجلٌ؛ يقال له زهير بن القين البجلي؛ فقال: يا ابنَ رسول الله! وددتُ أني قُتِلت، ثم نُشِرت، ثم قُتِلت، ثم نُشِرت، ثم قُتِلت، ثم نُشِرت فيك وفي الذين معك مائةَ قتلة، وإن اللهَ دفع بي عنكم ـ أهل البيت ـ.

فقال [الحسين] له ولأصحابه: جزيتم خيراً»[1].

وسنختم هذا البحث بموجز لوقائع النهضة، ليكون القارئ على معرفةٍ؛ وإن كانت إجمالية، بما جرى من فجائع بحق آخرِ مشروعٍ سماويٍّ أراده الله أن يكون سببَ نجاةٍ للناس، وبما حلَّ بعترةٍ تعلقت مشيئةُ الله تعالى أن يكونوا قادة الناس وخلفاء له فيهم[2]؛ بعد رسول الله ﷺ،

(١) الأمالي للشيخ الصدوق، المجلس الثلاثون، مقتل الحسين، ص٢١٥، مؤسسة البعثة ١٤١٧ هـ، الطبعة الأولى. وعنه بحار الأنوار، تاريخ فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، أبواب ما يختص بتاريخ الحسين بن علي (صلوات الله عليه، الباب ٣٧، باب ما جرى عليه بعد بيعة الناس ليزيد...، ج٤٤، ص٣١٥.

(٢) وهذا ما جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)؛ حيث قال: **إني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله، حبل ممدود ما بين السماء والأرض، أو ما بين السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوضَ**) مسند أحمد، الحديث ٢١٥٧٨، مسند زيد، ط الرسالة، ج٣٥، ص٤٥٦. وقد حكم الألباني بصحته في صحيح الجامع الصغير وزيادته، ج١، ص٤٨٢، برقم (٢٤٥٧).

وقد حكم بصحته الألبانيُّ في صحيح الجامع الصغير وزوائده، ج١، ص٤٨٢، برقم ٢٤٥٧.

للتمسك الوثيق بهذا السبب، والاعتصام الأكيد بحبل الله المتين وعروته الوثقى التي لا تنفصم. وليكون تذكيراً بالفاجعة لمن كان على معرفة سابقةٍ بها، وتعريفاً بها لمن لم يعلم.



تمهيد
القيم الأخلاقية في الفكر الحسيني

لا نستطيع قراءة النهضة الحسينية بعيداً عن الدين الإسلامي نفسه، ذلك أن صاحب هذه النهضة وقائدها إنما انطلق في جميع أفعاله وأقواله من قواعد أربع، هي:

القاعدة الأولى: إيمانه العميق بهذا الدين، وأنه الدين الذي لا مناص من التدين به لمن يرغب في نجاته دنيا وآخرة من الاعتقاد به، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ... وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران/ ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران/ ٨٥].

القاعدة الثانية: وجوب السير في ضوء تعاليمه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء/ ٦٤].

القاعدة الثالثة: لزوم الدعوة إليه، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف/ ١٠٨].

القاعدة الرابعة: ضرورة الدفاع عن أصالة الدين كما جاء من عند الله، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[يونس/ ٥٩].

وتأسيساً على هذه القواعد، فإننا إذا عُدنا إلى معارف هذا الدين وتعاليمه؛ المستقاة من النصوص القرآنية، وإلى ما روي عن النبي وعن آله (صلى الله عليه وعليهم أجمعين) فسنجد أن للقيم الأخلاقية شأناً يجعلها في مقدمة هذه المعارف والتعاليم، حتى ليصح منا القول: إن دين الإسلام هو مشروعٌ أخلاقيٌّ في الدرجة الأولى، وإن أول مسألة فيه هي مسألةٌ أخلاقيةٌ.

ويشهد لذلك ما جاء في نهج البلاغة من قولٍ لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام «**أول الدين معرفتُه، وكمالُ معرفته التصديقُ به، وكمالُ التصديق به توحيدُهُ، وكمالُ توحيده الإخلاصُ له**»[1]. فالمعرفةُ ـ التي جُعِلت (أولَ الدين) ـ فُسِّرت بـ(التصديق)، وجُعِلت هذه المعرفةُ مراتبَ؛ أعلاها أن تنتهي المعرفةُ بالعارف إلى التصديق، وجُعل هذا الأخير (التصديق) أيضاً مراتب؛ يجب أن تنتهي ـ في أعلاها ـ بالمصدِّق إلى (التوحيد)؛ الذي يُفترَض أن يَجعل صاحبه مخلصاً.

(١) نهج البلاغة، الخطبة الأولى.

والإخلاص ـ كما لا يخفى ـ هو صفةٌ أخلاقيةٌ بامتيازٍ[1]. فقد عرفه النراقي بقوله: (... هو تجريد القصد من الشوائب كلها)[2]. وقال الغزالي: الإخلاص وضده يتواردان على القلب؛ فمحله القلب وإنما يكون ذلك في القصود والنيات)[3].

وقد يُثار هنا سؤالٌ، أو تساؤلٌ، ويقال:

إن ما درج عليه علماء الأمة في تصنيف العلوم وترتيبها؛ من حيث الأهمية، هو أن علم العقيدة؛ وقد يسمى بـ(علم الكلام)، هو الذي يأتي في صدارة العلوم؛ حيث يُؤصَّل فيه الاعتقادُ بأصول الدين وما يتفرع عنها من معتقدات ومعارف، ثم تأتي بقية العلوم الأخرى؛ من فقهٍ وأخلاقٍ وغير ذلك[4].

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي، والمحجة البيضاء للفيض الكاشاني، كتاب المنجيات، كتاب النية والإخلاص والصدق، و ج٣ من كتاب جامع السعادات للمولى مهدي النراقي.

(٢) النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات، مبحث الرياء، الإخلاص وحقيقته، ج٢، ص٣١١.

(٣) الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، كتاب الإخلاص والنية والصدق، بيان حقيقة الإخلاص، ج٤، ص٣٧٩.

(٤) قال العلامة الحلي: البديهة حاكمة بشرف العلم وعلو شأنه. [و] لا شكّ أنّ شرف العلم تابع لشرف المعلوم، ولمّا كان الغرض الأقصى من هذا الفن معرفة اللّه تعالى وصفاته وكيفيّة أفعاله وتأثيراته، والبحث عن رسله وأوصيائهم، وأحوال النفس والمعاد، وهذه أشرف المطالب خصوصاً وواجب الوجود تعالى أشرف الموجودات، فالعلم به أشرف العلوم) [نهاية المرام في علم الكلام، المقدمة، الفصل الأول، ص٧].

ومن أول مسائل علم العقيدة مسألة (وجوب النظر)[1]، وهي مسألةٌ عقليةٌ تحليليةٌ[2] وليست أخلاقيةً! فكيف يصح القول ـ مع هذا ـ أن أخلاقيةَ الدين هي العنوان العريض له؛ بحيث يكون الإسلام مشروعاً أخلاقياً؛ فضلاً عن أن تكون أول المسائل فيه ذات بُعدٍ أخلاقيٍّ؟!

ونجيب على هذا السؤال؛ أو التساؤل، بالقول:

إن مَن يراجع البحوث التي عالجت مسألة ترتيب العلوم عامة ومسائل علم العقيدة خاصة يرى ما فيها ليس فقط غيرَ منافٍ لما قلناه، بل إنه يؤكد صحته.

---

(١) قال الشيخ الطوسي: لا يمكن الوصول إلى معرفة الله تعالى إلا بالنظر في حدوث ما لا يدخل تحت مقدور المخلوقين، وهو الأجسام والأعراض المخصوصة، كالألوان والطعوم والأراييح والقدرة والحياة والشهوة والنفار وما جرى مجرى ذلك) الاقتصاد، بيان ما يؤدي النظر فيه إلى معرفة الله تعالى، ص٢٠.
وقال العلامة الحلي: معرفة الله تعالى لا تتم إلا بالنظر). وكذلك قال:... **أن معرفةَ اللهِ تعالى لا تتم إلا بالنظرِ، وذلك قريبٌ من الضرورةِ؛ إذ المعرفةُ ليست ضروريةً قطعاً؛ فهي كسبيةٌ، ولا كاسبَ سوى النظرِ)** كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، المقصد الثاني، المسألة الثانية والعشرون وجوب النظر.
وانظر ـ أيضاً ـ: المسألة الثانية من كتاب نهج الحق للعلامة الحلي.
وأما (النظر) فقد عُرِّف بأنه: **ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى أمر آخر)** [النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر ـ المقداد السيوري، المقدمة، ص٢٠، ط. دار الأضواء]. أو: **ترتيبُ أمورٍ ذهنيةٍ للتوصلِ إلى أمرٍ مجهولٍ)** [كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للعلامة الحلي، المسألة الثانية والعشرون من المقصد الثاني].

(٢) اختُلِف في وجوبه، وأنه بالعقل أو النقل؟ وللتعرف على تفصيل الخلاف انظر المسألة الثانية والعشرون من المقصد الثاني من كتاب كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للعلامة الحلي.

ولتوضيح هذه الدعوى نقول:

إذا سلَّمنا بأن علم العقيدة هو أول العلوم ـ كما هو المشهور[1] ـ فإن أول مسائله هو وجوب النظر، ولكننا إذا دققنا فيها سنجد أنها تبتني؛ في مقام الاستدلال عليها، على أمرين؛ كلاهما أخلاقيٌّ.

والأمران هما:

أولاً: وجوب شكر المنعم

وهذا أمرٌ أخلاقيٌّ بلا ريب؛ لأن معناه هو أن العقل يدرك وجوب مقابلة الإحسان من المنعم بالإحسان من المنعَم عليه عبر شكره إياه.

ثانياً: وجوب دفع الضرر

وهذا ـ أيضاً ـ أمرٌ أخلاقيٌّ؛ كما لا يخفى على مَن تأمَّل فيه؛ فإن وجوب دفع الضرر يرجع إلى أن على الإنسان حقاً لنفسه بأن يحافظ عليها؛ عقلاً وروحاً وجسداً، وهذا يعني أننا نتكلم عن حقوقٍ ذات طابعٍ أخلاقيٍّ[2].

---

(١) قال الشيخ ميثم البحراني: ... فلما كان شرف العلم بشرف المعلوم، وكلما كان المعلوم أجل وأعلى كان العلم به بالرعاية أولى، وكانت ذات الباري سبحانه أشرف المعلومات فكانت معرفته أتم المهمات، إذ كان المتوجه إليها هو المتوجه إلى أعلى الكمالات والفائز بها هو الفائز بأقصى مراتب السعادات. وإذا كان المتكفل ببيانها هو العلم المسمى في عرف المتكلمين بـ(أصول الدين) [قواعد المرام في علم الكلام، المقدمة، ص٢٠، نشر مكتبة السيد المرعشي].

(٢) قال الشيخ ميثم البحراني: النظرُ في معرفة الله تعالى واجبٌ عقلاً؛ خلافاً للأشعرية. =

وعلى هذا، يتأكد كلامُنا بأن الدين مشروعٌ أخلاقيٌّ في الدرجة الأولى، وأن أول مسائله هي (الأخلاق).

وهذا ما نجده جلياً في مصادر المعرفة الدينية ونصوصها، ونتناول ذلك في جهتين:

=لنا: إن النظرَ شرطٌ لحصول أمرٍ واجبٍ، وما كان شرطاً للواجب كان واجباً.
أما المقدمة الأولى: فلأنه شرطٌ لمعرفة الله تعالى؛ وهي واجبةٌ.
أما أنه شرطٌ للمعرفة فلأنها من الأمور الكسبية، والضرورةُ قاضيةٌ بأنه ما لم يحصل في الذهن وسطٌ جامعٌ بين حدَّي المطلوب لم يحصل العلمُ به. وقد عرفت أن تحصيل الوسط لا يمكن إلا بالنظر؛ فإذن المعرفة لا تحصل إلا به فكان شرطاً لها.
وأما أنها واجبةٌ فمن وجهين:
الأول: إن دفع الضرر المظنون الذي يلحق بسبب الجهل بمعرفة الله واجبٌ عقلاً، ووجوبُ دفعِ ذلك الضرر مستلزمٌ لوجوب المعرفة.
بيان الأول: أن المكلف الجاهل بالله يجوز أن يكون له صانعٌ أراد منه معرفتَهُ، وكلَّفه بها، وأنه إذا لم يعرفه عاقبه، سواء كان ذلك التجويز بخاطرٍ خطر له، أو بحسب سماعه اختلافَ الناس في الديانات وإثبات الصانع، فإنه يجد من نفسه خوفُ عقابٍ مظنونٍ لعله يلحقه على ترك المعرفة، وذلك ضررٌ واجبُ الدفع عن النفس.
بيان الثاني: إن دفع ذلك الضرر لا يحصل إلا بالمعرفة؛ فكان وجوبه مستلزماً لوجوبها.
الثاني: لو لم يجب معرفةُ الله تعالى عقلاً لما وجب شكرُ نعمِه عقلاً، واللازمُ باطلٌ؛ فالملزوم مثله.
بيان الملازمة: أن بتقدير عدم معرفة المنعم لا يمكن شكرُهُ، وما لا يمكن أولى بأن لا يجب.
بيان بطلان اللازم: أن العاقل إذا فكَّر في خلقه وجد آثار النعمة عليه ظاهرةً، وقد تقرر في عقله وجوب شكر المنعم؛ فيجب عليه شكره؛ فيجب إذن معرفته.
بيان الثاني: أنه لو لم يجب الشرطُ لوجوب مشروطه لكان التكليف به تكليفاً بما لا يطاق وأنه قبيح عقلاً...) [قواعد المرام في علم الكلام، البحث السابع: وجوب النظر في معرفة الله، ص٢٨ ـ ٢٩].

الجهة الأولى: الأخلاق في القرآن

إذا حاولنا التعرف على ما يشهد لذلك من القرآن الكريم فسنجد الكثير من الآيات التي أبانت عن ذلك بأنحاء مختلفةٍ، منها ما هو صريحٌ، ومنها ما هو تلميحٌ.

ولنورد بعض تلك الآيات:

١ ـ قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة/ ٢]. وعلى الأقل فإن التزكية وتعليم الحكمة العملية هما من مسائل الأخلاق.

٢ ـ قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران/ ١٦٤]. وهذه الآية كسابقتها في المضمون؛ غير أن الأولى تخبر عن طبيعة المهمة النبوية، وأما هذه الآية فتبيِّن أن النبوة على هذا النحو هي شكلٌ من أشكال الامتنان الإلهي على الإنسان.

٣ ـ قوله سبحانه ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة/ ١٢٩] فإنه يحكي دعاء خليل الله إبراهيم عليه السلام، الذي جعل همه واهتمامه مركَّزاً على أن يكون في ذريته؛ منهم ولهم، رسولٌ من الله يقوم بمهمة الارتقاء بهم

علماً وعملاً، وجعل التربية الأخلاقية؛ التي هي التزكية وتعليم الحكمة العملية، جانباً مهماً منها.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس/ ٩ ـ ١٠] وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى/ ١٣ ـ ١٤] ففيها؛ أعني الآيات، بيانٌ لحقيقة أن سعادة الإنسان التامة والنهائية؛ التي هي الفلاح، لا تتحقق بغير تزكية النفس وتهذيبها؛ أي بالتحلي بالأخلاق الحسنة والتخلي عن الأخلاق السيئة.

٥ ـ عن لقمان الحكيم يكشف الله تعالى أن حكمته يتصدرها فضيلةٌ أخلاقيةٌ هي الشكر للمنعم الذي هو الله، فقال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان/ ١٢]. وهو بيانٌ واضحٌ لأهمية الخلق الحسن وأن الموفَّق هو مَن يتحلى بها.

٦ ـ إذا انعطفنا إلى منحى آخر سنجد التأكيدَ القرآنيَّ على تبيان السبل التي تجعل الإنسان كاملاً قريباً من الله محبوباً له، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة/ ١٩٥]. وبالإحسان يتجاوز المحسنُ ذاتَهُ، ويتخلى عن أنانيته، ويستشعر المسؤوليةَ تجاه الآخرين بل تجاه نفسه، لأن المحسنَ هو مَن ينشد أفضلَ الأعمال ولا يكتفي بأواسطها فضلاً عن أن يقترف قبائحها من السيئات والخطايا والأخطاء.

٧ ـ من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ

﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة/ ٢٢٢]. والتوبة والتطهر يعنيان ـ دون الدخول في تفاصيلهما الآن ـ حرصَ الإنسان على النأي بنفسه عن كلِّ شائبةٍ تبعده عن الحق والحقيقة والفضل والفضيلة.

٨ ـ في السياق نفسه؛ أعني سياق الخلق الفاضل، تأتي التعليمات الإسلامية من خلال القرآن الكريم للتأكيد على أن القيم الأخلاقية لا تسمح بالعدوان على الناس؛ عبر التنكر لحقوقهم المادية والمعنوية التي يودعونها عند مَن افترضوا فيه الأمانة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء/ ٥٨]. فمن استأمنكم على شيء حتى الخبر والحديث؛ فإن الآية تنهى عن الإخلال بالأمانة فيها[(١)].

٩ ـ لعلك ـ أخي القارئ ـ تلحظ أن ما أوردناه من آيات هي ما يحضُّ ويحثُّ على الفضيلة، ولكن يجب إلفات النظر إلى الجناح الثاني للأخلاق الحسنة؛ وهو التخلي عن الرذائل، وكما بيَّن الله تعالى الجناحَ الأولَ؛ كما سُقنا شواهدَ له، فقد أبان عن الثاني بالعشرات بل المئات من

(١) روى الشيخ الصدوق؛ في معاني الأخبار، حديثاً لافتاً للنظر في أهمية الأمانة؛ انطلاقاً من هذه الآية، بسنده عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم، قال: **لَقَدْ حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ** عليه السلام **قَالَ لِأَصْحَابِهِ: عَلَيْكُمْ بِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ؛ فَلَوْ أَنَّ قَاتِلَ أَبِيَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ** عليه السلام **ائْتَمَنَنِي عَلَى السَّيْفِ الَّذِي قَتَلَهُ بِهِ لَأَدَّيْتُهُ إِلَيْهِ)** بحار الأنوار، ج٢٣، ص٢٧٨، باب ١٦ ـ أن الأمانة في القرآن الإمامة.

الآيات؛ من قبيل قوله تعالى ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة/ ١٩٠]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة/ ٢٠٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران/ ١٤٠]، وقوله تعالى ـ على لسان نبيه صالح عليه السلام مخاطباً من كفر من قومه ـ ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف/ ٧٩].

١٠ ـ نختم الآيات بما جُعِل ـ في القرآن الكريم ـ سمةً عامةً وشهادةً منه تعالى لمن هو رحمةٌ للعاملين ولمن جُعِل قدوة للناس أجمعين؛ أعني به النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، حيث قال سبحانه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم/ ٤]،في إشارة أكيدة لمكانة الخلق الحسن في بنية هذا الدين الرباني.

فهذه الآيات ونظائرها تبين بوضوحٍ ما للقيم الأخلاقية من مكانةٍ في الإسلام على صعيدي النظرية والتطبيق.

الجهة الثانية: الأخلاق في السنة المطهرة

إن الروايات التي عالجت الشأن الأخلاقي؛ في أصله وتفاصيله، بلغت من الكثرة ما لا قِبَلَ لهذا البحث الوجيز برصده. غير أنا نذكر بعضه للإضاءة عليه لا غير، وكما تقدمَ منا في الآيات القرآنية كذلك نقول في الروايات؛ من أنها عالجت القيم الأخلاقية ببعديها الإيجابي والسلبي، فحثَّت بل أمرت بالفضائل، ونهت بشدة عن الرذائل. ولنورد بعض

الروايات كمصابيح مضيئة من سماءٍ تحتشد بكمٍّ هائلٍ لا يعد من النجوم.

١ ـ روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«أفاضلكم أحسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون، وتوطأ رحالهم»**[(١)]. وروى أحمد عن عبدالله بن عمرو، قال: **إن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم قال في مجلسٍ: ألا أحدثكم بأحبِّكم إليَّ وأقربِكم مني مجلساً يوم القيامة؟ «ثلاث مرات يقولها. قال: قلنا: بلى، يا رسول الله! قال: فقال: أحسنكم أخلاقاً»**[(٢)].

٢ ـ روي عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال: **«إن أكملَ المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»**[(٣)].

٣ ـ روي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: **«ما يقدم المؤمنُ على الله عز وجل بعملٍ؛ بعد الفرائض، أحبَّ إلى الله تعالى من أن يسع الناسَ بخلقه»**[(٤)].

٤ ـ روي عنه عليه السلام أنه قال: **«إن الله تبارك وتعالى ليعطي**

---

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب حسن الخلق، الحديث ١٦.

(٢) بن حنبل، أحمد، مسند أحمد، ج١١، ص٦٠٨ ـ ٦٠٩، الحديث ٧٠٣٥.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب حسن الخلق، الحديث ١.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب حسن الخلق، الحديث ٤.

العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو عليه ويروح»[1].

٥ - روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن صاحب الخلق الحسن له مثل أجر الصائم القائم»[2].

٦ - روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن الخلقَ الحسنَ يميث الخطيئةَ كما تميث الشمسُ الجليدَ»[3].

٧ - روي عن الإمام الصادق عليه السلام أيضا أنه قال: «البر وحسن الخلق يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار»[4].

٨ - روي عنه عليه السلام أنه قال: ... «إن شئتَ أن تكرم فلِن، وإن شئتَ أن تهان فاخشن...»[5].

٩ - روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم لن تسعوا الناسَ بأموالكم فالقوهم بطلاقةِ الوجه وحسنِ البشر»[6].

---

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب حسن الخلق، الحديث ١٢.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب حسن الخلق، الحديث ٥.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب حسن الخلق، الحديث ٧.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب حسن الخلق، الحديث ٨.

(٥) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، كتاب العقل والجهل، الحديث ٢٩.

(٦) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب حسن البشر، الحديث ١.

وهذه الروايات ليست سوى نماذج؛ من كم هائل من النصوص، على تبيان مكانة الخلق الحسن في المشروع الإسلامي؛ الذي جاءت النهضة الحسينية في سياق المحافظة عليه؛ وجودا وامتدادا، وهذا ما نجده تحول ثقافة إسلامية سعى أهل البيت عليهم السلام إلى تكريسها بصور عديدة، منها (الدعاء)؛ الذي نجده حاشدا بالتأكيد على ضرورة مراعاة القيم الأخلاقية؛ بالخصوص في ما يتعلق بحقوق العباد.

فها هو الإمام السجاد عليه السلام؛ الذي كان مشاركا في النهضة وشاءت الحكمة الإلهية أن يحفظ عن أن يقتله الأعداء؛ لتبقى سنة الإمامة الإلهية جارية بين الناس[1]، نجده عليه السلام يقول في دعائه يوم الاثنين:

«... وأسألك في مظالم عبادك عندي، فأيما عبد من عبيدك أو أمة من إمائك كانت له قبلي مظلمة ظلمتها إياه، في: نفسه، أو في عرضه، أو في ماله، أو في أهله وولده، أو غيبة اغتبته بها، أو تحامل عليه؛ بميل، أو هوى، أو أنفة، أو حمية، أو رياء، أو عصبية، غائبا كان أو شاهدا،

---

(١) كان علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: مريضاً لا يقدر أن يقل سيفه)، وخرج من خيمته ليلبي استغاثة والده فخرجت عمته (أم كلثوم تنادي خلفه: يا بني ارجع)، فقال (يا عمتاه ذريني أقاتل بين يدي ابن رسول الله) فقال الحسين عليه السلام: يا أم كلثوم! خذيه لئلا تبقى الأرض خالية من نسل آل محمد صلى الله عليه وآله) [بحار الأنوار، ج٤٥، ص٤٦].

وحيا كان أو ميتا، فقصرت يدي وضاق وسعي عن ردها إليه والتحلل منه، فأسألك يا من يملك الحاجات، وهي مستجيبةٌ لمشيَّته، ومسرعةٌ إلى إرادته، أن تصليَ على محمد وآل محمد، وأن ترضيَه عني بما شئتَ، وتهب لي من عندك رحمةً، إنه لا تنقصك المغفرةُ ولا تضرك الموهبةُ، يا أرحم الراحمين»[1].

وبعد هذا يجدر بنا أن نعرف مكانة (الأخلاق) في منظومة الاهتمامات الإنسانية؛ ذلك أن (شرف علم الأخلاق لشرف موضوعه وغايته)، وهذا مبني على أساسٍ متينٍ يتمثَّل في (أن الحياة الحقيقية للإنسان تتوقف على تهذيب الأخلاق)، وبه يتضح أن علم الأخلاق هو (أشرف العلوم وأنفعها)[2].

بل إن الأمر يتجاوز حدودَ الشرف الذاتي للعلم إلى اللزوم العقلي والشرعي في تعلمه (فعلم الأخلاق يجب أخذه عيناً على كلِّ أحدٍ)[3].

ومن هذا المنطلق نجد القيم الأخلاقية في الفكر

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، كتاب الصلاة، باب أعمال الأسبوع وأدعيتها وصلواتها، الباب ٩، الحديث ٢١، ج٨٧، نقلا عن البلد الأمين والجنة الواقية للشيخ الكفعمي.

(٢) النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات، شرف علم الأخلاق لشرف موضوعه وغايته، ج١، ص٤٩.

(٣) النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات، العلم الإلهي وعلم الأخلاق والفقه أشرف العلوم، ج١، ص١١٧.

الحسيني تتبوأ مكانةً ساميةً. لذلك، نجد سيد الشهداء عليه السلام ينظِّر ويبشِّر بهذه القيم بمختلف صنوف التنظير والتبشير.

فمثلاً روي عنه قوله عليه السلام: **«الأمينُ آمنٌ، والبريءُ جريءٌ، والخائنُ خائفٌ، والمسيءُ مستوحشٌ...»**[1].

وهذا النص الشريف يجمع بين الوصف الرائع لحالات الناس؛ من حيث التزامهم بالقيم الأخلاقية الإيجابية وأضدادها، وبين الحث والحض على التحلِّي بالحميد منها والتخلِّي عن القبيح؛ لِما يترتب على الصنف الأول من منافع ومصالح، وعلى الصنف الثاني من مفاسد ومضار.

ويشبه هذا النصَّ؛ من هذه الناحية، أي الوصف والحض، قولُهُ عليه السلام: **«العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يعد ما لا يقدر عليه، ولا يرجو ما يعنف برجائه ولا يتقدم على ما يخاف فوته بالعجز عنه»**[2]. فهو في قوله هذا ـ مضافاً إلى وصف العاقل ـ يرشد ويدعو إلى الاتصاف بأوصافه؛ التي منها الاتزان والحكمة

---

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، لجنة الإمام الباقر عليه السلام، الحديث ١٠٧٠.

(٢) نُسِب هذا الكلام إلى الإمام الحسين عليه السلام في بعض الكتب، مثل موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، لجنة الإمام الباقر عليه السلام، الحديث ١٠٧١، غير أن الأشهر روايته عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام في حديث العقل المشهور، المروي برقم (١٢) في كتاب العقل والجهل من أصول الكافي، وغيره من المصادر. ولا مانع من أن يكون قد صدر هذا الكلام أولاً من الإمام الحسين عليه السلام، ثم تفوه به الإمام الكاظم عليه السلام دون أن يصرح بصدوره من جده عليه السلام؛ وعلمهم مستقى من مشكاة واحدة.

في التعامل مع الناس على مستوى التعامل معهم؛ خطاباً لهم، أو طلباً منهم، أو وثوقاً بهم، أو رجاءً منهم.

ولا يفوتنا التنبيهُ إلى: أننا حينما نتحدث عن الفكر الحسيني فلسنا نقصد قطعَ الصلة العضوية؛ على مستوى الفكرِ والممارسة، بين الحسين عليه السلام ومن سبقه؛ أعني النبي والأئمة المعصومين (عليه وعليهم السلام)، فقد كان ذلك واضحاً وملموساً؛ حتى لأعدائهم فضلاً عن أوليائهم.

وكشاهدٍ على هذه الحقيقة نستحضر ما رواه مدونو سيرته عليه السلام من أن جماعة من أولي الشأن تذاكروا العقل عند معاوية، فقال الحسين عليه السلام: «**لا يكمل العقلُ إلا باتباع الحقِّ**».

فقال معاوية: ما في صدوركم إلا شيءٌ واحدٌ)[1].

فالإمام الحسين عليه السلام يفترض أن العقلَ يدفع بصاحبه إلى أن يكون طالباً للحق عاملاً به. ومن معالم الحق التحلِّي بالخلق الحسن مطلقاً.

والعاقلُ ـ في الرؤية الحسينية ـ هو مَن تحلى بمنظومة

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٥، ص١٢٧، باب مواعظ الحسين بن علي عليه السلام؛ موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، لجنة الإمام الباقر عليه السلام، الحديث ١٠٧٢.

ولعل معاوية يلمح إلى الواقع المر الذي كشف عنه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله: **ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثرُ أهله الغدر كَيساً، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة. ما لهم ـ قاتلهم الله ـ قد يرى الحوَّلُ القلبُ وجهَ الحيلة ودونه مانع من أمر الله ونهيه؛ فيدعها رأيَ عينٍ بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين)** نهج البلاغة، الخطبة ٤١.

القيم المتكاملة؛ والتي رصدها لنا سليلُ هذه المدرسة ومجذِّرُها ومروجُها، أعني الإمام جعفر الصادق عليه السلام، في الحديث المهم في بابه والمعروف بحديث جنود العقل والجهل[1].

ومن نافلة القول: التأكيدُ على أن النهضة الحسينية انطلقت شرارتُها، وتوهجت شعلتُها إلى مستوى الاستشهاد لغرضٍ نبيلٍ وسامٍ هو تكميل العقل الذي لا يتحقق بغير اتباع الحق؛ فـ(**العقلُ ما اكتُسب به الجنة، وطُلب به رضا الرحمن**) كما قال الرسول صلى الله عليه وآله[2]، وهذا ما تطلَّب ـ بعد الانحراف الكبير الذي وقعت فيه السلطة وانعكس على مسيرة جماهير الأمة ـ نهضةً استشهاديةً؛ توفِّر أرضيةَ الإصلاح الشامل بما فيه الإصلاح الأخلاقي؛ فكراً وممارسةً لدى الخواص والعوام معاً.

وقد بلغ حرصُ قائد النهضة عليه السلام على رعاية الحرمات حداً كان على أتم الاستعداد أن يصيبه كلُّ أذى على أن تتعرض هذه الحرمات للهتك.

وكنماذج على رعاية القيم نكتفي:

١ ـ **بما رواه الطبري**؛ وغيره، من حوار جرى بين الإمام الحسين عليه السلام وعبدالله ابن الزبير لما التقيا في يوم التروية

(١) انظر: أصول الكافي، كتاب العقل والجهل، الحديث ١٤.
(٢) من لا يحضره الفقيه، باب النوادر.

بين الحجر والباب: «قَال له ابن الزبير: **إن شئتَ أن تقيم أقمتَ؛ فوَليت هذا الأمرَ؛ فآزرناك، وساعدناك، ونصحنا لك، وبايعناك.**

فقال له الحسين: إن أبي حدثني أن بها كبشاً يستحِل حرمتَها، فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش!

فقال له ابن الزبير: فأقِم إن شئتَ، وتوليني أنا الأمر؛ فتُطاع ولا تُعصى!

فقال: وما أريد هذا أيضاً.

قالا ثم إنهما أخفيا كلامهما دوننا فما زالا يتناجيان حتى سمعنا دعاء الناس رائحين متوجهين إلى منى عند الظهر»[1].

والحوار يكشف عن طبيعة المشروعين المتضادين من حيث القيم. فالحسين عليه السلام يهتم بالحرمات ورعايتها، بينما يهتم محاوِرُهُ بمن سيلي الأمر؛ ليكون السلطانَ الآمرَ والناهيَ!!

٢ ـ كنموذج آخر لأخلاقيات النهضة نسوق الشاهد التالي:

جرت حوارات عديدة بين الإمام الحسين عليه السلام وكثيرين سعوا في ثنيه عن المسير إلى العراق؛ كلٌّ من منطلقاته التي

---

(١) تاريخ الطبري، ذكر مسير الحسين، ج٥، ص٣٨٤ ـ ٣٨٥.

يؤمن بها، ومن بواعث ظاهرة وخفية، حسنة أو قبيحة، ينطلق منها.

ومن هؤلاء كان عبدالله ابن عمر الذي قال للإمام الحسين عليه السلام لَمَّا كان بمكة المكرمة:

«أبا عبدالله! مهلاً عمّا قد عزمتَ عليه، وارجع من هنا [أي مكة] إلى المدينة، وادخل في صلح القوم، ولا تغب عن وطنك وحرم جدك رسول الله (صلّى الله عليه [وآله] وسلَّم)، ولا تجعل لهؤلاء؛ الذين لا خلاق لهم، على نفسك حجةً وسبيلاً. وإن أحببتَ أن لا تبايع فأنت متروكٌ حتى ترى برأيك فإنّ يزيد بن معاوية ـ لعنه الله ـ عسى أن لا يعيش إلا قليلاً فيكفيك الله أمره».

فقال الحسين: أفٍّ لهذا الكلام! أبداً ما دامت السماوات والأرض! أسألك بالله يا عبدالله! أنا عندك على خطأٍ من أمري هذا؟ فإن كنت عندك على خطأٍ فردَّني، فإني أخضع، وأسمع، وأطيع؟!

فقال ابن عمر: اللهم لا، ولم يكن الله تعالى يجعل ابن بنت رسوله على خطأٍ، وليس مثلك؛ من طهارته وصفوته من الرسول (صلَّى الله عليه [وآله] وسلّم)، على مثل يزيد بن معاوية ـ لعنه الله ـ باسم الخلافة، ولكن أخشى أن يضرب وجهك هذا الحسنَ الجميلَ بالسيوف وترى من هذه الأمة ما لا تحب. فارجع معنا إلى المدينة. وإن لم تحب أن تبايع فلا تبايع أبداً واقعد في منزلك.

فقال الحسين: هيهات يا ابن عمر! إن القومَ لا يتركوني، وإن أصابوني، وإن لم يصيبوني فلا يزالون حتى أبايع وأنا كاره أو يقتلوني. أما تعلم يا عبدالله! أن من هوان هذه الدنيا على الله تعالى أنه أتي برأس يحيى بن زكريا عليه السلام إلى بغية من بغايا بني إسرائيل والرأس ينطق بالحجة عليهم؟

أما تعلم أبا عبد الرحمن! أن بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبياً، ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون كلهم؛ كأنهم لم يصنعوا شيئاً، فلم يعجِّل الله عليهم، ثم أخذهم بعد ذلك أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ»[1].

وهذا الحوار يكشف عن منطقين أخلاقيين مختلفين تماماً؛ اصطدما قبل واقعة كربلاء وفيها وبعدها، بالمواجهة في هذا الجانب أو ذاك، أو بالخذلان من فريق لجانب الحسين أو الانتصار له بأشكال متعددة، وكشف كلُّ فريقٍ عن طبيعته وماهيته، وليبقى المنطقان متصارعين إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ولنا وقفاتٌ موسعةً نسبياً مع هذا الحوار بالتحديد تأتي لاحقاً.



(١) الفتوح لابن أعثم، باب وصية الحسين لأخيه محمد رضي الله عنه، ج٥، ص٢٥ ـ ٢٦.

الفصل الأول

أخلاقية النهضة الحسينية على مستوى الدواعي والبواعث

للنهضة الحسينية ـ كأيٍّ نهضةٍ في تاريخ البشر ـ دواعيها وبواعثُها، ولن نجد معبِّراً عن هذه الدواعي والبواعث أفضلَ من قائدها وراعيها، خصوصاً إذا كان حديثُ القائد عن تلكم الدواعي والبواعث موجَّهاً للنخب والخواص الذين يفترض بهم دقةُ الاستيعاب من جهة، وسرعةُ التفاعل مع الفكرة وتبنيها من جهة ثانية، وشرحها وتبيينها من جهة ثالثة.

وتزداد الأهميةُ إذا كان الحديثُ عن هذه الدواعي والبواعث تم بدعوةٍ خاصةٍ في مجلسٍ هو أشبه بالمؤتمر تم التحضيرُ له؛ في بقعة هي من أشرف البقاع؛ أعني مكة المكرمة، وفي موسم هو خير المواسم؛ أعني الحج، لمعالجة مسألةٍ بالغة الأهمية دينياً ودنيوياً.

وهذه الخصائص يمكن ملاحظتُها بتمامها في ما نقله بعضُ المحدثين من أن الإمام الحسين عليه السلام دعا هؤلاء

النخبَ، وألقى على مسامعهم خطبةً عصماءَ كشف فيها عن:

١ ـ تشخيصه لواقع الأمة السيئ في مختلف جوانبه.

٢ ـ ما يجب اعتماده من طرق إصلاحية.

٣ ـ العوائق التي تحول دون قيام النخب بدورهم الإصلاحي.

ونلاحظ ـ أولاً ـ أن الخطاب الحسيني الموجَّهَ للنخب الممثلة لبقاع العالم الإسلام قد تضمَّن التركيزَ على عددٍ من الفضائل الأخلاقية الضرورية للمصلحين؛ كالاعتبار، والشجاعة، والبذل، والبصيرة، والصبر، ونصرة المظلوم، والعدل ونشره، والنصيحة، ورعاية الضعفاء والمساكين...

ونلاحظ ـ ثانياً ـ أن الخطاب تضَّمن التأكيدَ على وجوب التخلي عن كلِّ رذيلةٍ تشكِّل عائقاً دون المضي قدماً في هذا السبيل؛ من قبيل: الرهبة من الظالم، والرغبة في ما عنده، ومسايرته، ومهادنته، وتضييع الحقوق، وحب الحياة والدعة.

ونلاحظ ـ ثالثاً ـ أن الخطاب الشريف جاء مؤصَّلاً ومدعَّماً بالمقدمات البرهانية والوجدانية والآيات القرآنية الناصَّة على مضامينها دون لبسٍ أو غموضٍ.

ولا بأس بإيراد نص الخطاب كاملاً، ومن أجل التسهيل فقد وضعنا عناوين للمقاطع[1]:

المحور الأول: دور العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الفريضة والفضيلة

اعتبروا - أيها الناس - بما وعظ الله به أولياءه من سوء ثنائه على الأحبار؛ إذ يقول: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾[2]، وقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[3].

وإنما عاب الله ذلك عليهم لأنهم كانوا يرون من الظلمة الذين بين أظهرهم المنكر والفساد فلا ينهونهم عن ذلك؛ رغبةً في ما كانوا ينالون منهم، ورهبةً مما يحذرون، والله يقول ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾[4].

وقال ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ

---

(١) اقرأ نص الخطاب في تحف العقول باب ما روي عن الإمام الحسين عليه السلام، وعنه بحار الأنوار، ج٩٧، باب وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الحديث ٣٧، ص٧٩ - ٨١.

(٢) المائدة/ ٦٣.

(٣) المائدة/ ٧٨ - ٧٩.

(٤) المائدة/ ٣.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[1]. فبدأ الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضةً منه؛ لعلمه بأنها إذا أُدِّيت وأقيمت استقامت الفرائض كلها؛ هينها وصعبها؛ وذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاءٌ إلى الاسلام، مع رد المظالم، ومخالفة الظالم، وقسمة الفيء والغنائم، وأخذ الصدقات من مواضعها ووضعها في حقها.

المحور الثاني: قيمة العلماء من العلم والعمل ومصير أسود للمقصرين منهم

ثم أنتم ـ أيتها العصابة ـ عصابة بالعلم مشهورة، وبالخير مذكورة، وبالنصيحة معروفة، وبالله ـ في أنفس الناس ـ مهابةٌ. يهابكم الشريف، ويكرمكم الضعيف، ويؤثركم مَن لا فضل لكم عليه ولا يد لكم عنده. تشفعون في الحوائج إذا امتنعت من طُلابها، وتمشون في الطريق بهيبة الملوك وكرامة الأكابر.

أليس كل ذلك إنما نلتموه بما يُرجى عندكم من القيام بحق الله، وإن كنتم عن أكثر حقه تقصرون؛ فاستخففتم بحق الأئمة.

فأما حق الضعفاء فضيعتم، وأما حقكم ـ بزعمكم ـ

(١) التوبة/ ٧١.

فطلبتم. فلا مالاً بذلتموه، ولا نفساً خاطرتم بها للذي خلقها، ولا عشيرة عاديتموها في ذات الله.

أنتم تتمنون على الله جنته، ومجاورة رسله، وأمانا من عذابه.

لقد خشيت عليكم ـ أيها المتمنون على الله ـ أن تحل بكم نقمةٌ من نقماته؛ لأنكم بلغتم من كرامة الله منزلة فُضِّلتم بها، ومَن يُعرف بالله لا تكرِمون، وأنتم بالله في عباده تُكرَمون.

وقد ترون عهودَ الله منقوضة فلا تفزعون، وأنتم لبعض ذمم آبائكم تفزعون، وذمة رسول الله صلى الله عليه وآله محقورة، والعمى والبكم والزمنى في المدائن مهملة لا ترحمون، ولا في منزلتكم تعملون، ولا من عمل فيها تعينون، وبالادهان والمصانعة عند الظلمة تأمنون. كل ذلك مما أمركم الله به من النهي والتناهي وأنتم عنه غافلون.

وأنتم أعظم الناس مصيبةً؛ لما غلبتم عليه من منازل العلماء؛ لو كنتم تشعرون.

ذلك بأن مجاري الأمور والأحكام على أيدي العلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه. فأنتم المسلوبون تلك المنزلة.

وما سُلِبتم ذلك إلا بتفرقكم عن الحق واختلافكم في السنة بعد البينة الواضحة.

ولو صبرتم على الأذى، وتحملتم المؤونة في ذات الله، كانت أمورُ الله عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإليكم ترجع، ولكنكم مكنتم الظلمةَ من منزلتكم، واستسلمتم أمور الله في أيديهم، يعملون بالشبهات، ويسيرون في الشهوات.

سلطهم على ذلك فراركم من الموت، وإعجابكم بالحياة التي هي مفارِقتكم، فأسلمتم الضعفاء في أيديهم، فمن بين مستعبَدٍ مقهورٍ، وبين مستضعفٍ على معيشته مغلوب.

يتقلبون في الملك بآرائهم، ويستشعرون الخزي بأهوائهم؛ اقتداءً بالأشرار، وجرأةً على الجبار. في كل بلد منهم على منبره خطيب يصقع، فالأرضُ لهم شاغرةٌ، وأيديهم فيها مبسوطة، والناس لهم خَوَل لا يدفعون يد لامس.

فمن بين جبار عنيد، وذي سطوة على الضعفة شديد، مطاع لا يعرف المبدئ المعيد.

المحور الثالث: تقصير العلماء باب لاستبداد الظلمة

فيا عجبا ومالي [لا] أعجب والأرض من غاش غشوم، ومتصدق ظلوم، وعامل على المؤمنين بهم غير رحيم، فالله الحاكم في ما فيه تنازعنا والقاضي بحكمه فيما شجر بيننا.

المحور الرابع: ضرورة النبل الأخلاقي والسعي في الإصلاح على مستوى الدوافع والبواعث

اللهم إنك تعلم أنه لم يكن ما كان منا تنافساً في سلطان، ولا التماساً من فضول الحطام، ولكن لنُرِي المعالم من دينك، ونظهر الاصلاح في بلادك، ويأمن المظلومون من عبادك، ويعمل بفرائضك وسننك وأحكامك.

فإن لم تنصرونا وتنصفونا قوي الظلمة عليكم، وعملوا في إطفاء نور نبيكم. وحسبنا الله، وعليه توكلنا، وإليه أنبنا، وإليه المصير) انتهى.

فهذه الخطبة الجليلة والمركَّزة تؤكد ـ في محاورها الأربعة ـ على جملةِ أمورٍ؛ تصب بأجمعها في خدمة أخلاقية النهضة الحسينية، وتحث على أن تكون مسيرةُ حياة الإنسان؛ أياً كان، ذاتَ طابعٍ أخلاقيٍّ رفيعٍ.

وهذه الأمورُ هي:

أولاً: أن خلاص الناس من الشقاء لا يكون بغير الدين؛ كما أنزله الله، وهذا ما أفاده المحور الرابع؛ الذي هو بمثابة النتيجة والخلاصة لمجموع الخطبة وفقراتها.

ثانياً: أن مَن يحكم بغير ما أنزل هو ظالم لنفسه؛ فكيف يكون عادلاً مع غيره؟!

ثالثاً: أن القيم الأخلاقية؛ والتي لا تنفك عن الدين، هي صمام الأمان لسلامة المجتمع ورقيه.

رابعاً: أن القيم الأخلاقية ليست ضرورية التحقق، بل إن لتجسيدها خارجياً عوامل عديدة تتوزع على مسارين اثنين:

المسار الأول: الرؤية العلمية التي تعني فهم القيم.

المسار الثاني: التمثل العيني والعملي؛ التي يجسدها السلوك الإنساني بمعناه الشامل.

خامساً: أن القيم الأخلاقية ليست منقطعة الصلة عن الواقع السياسي والاجتماعي، حيث ينعكس تراجع هذا الموقع وتقهقره على تراجعها؛ أي القيم الأخلاقية. ومن ثَم وجب على حراس الفضيلة، عبر استقامتهم في العلم والعمل، أن يقاوموا المستبدين والظلمةَ، وخلاف ذلك عليهم أن يتحملوا التبعات السلبية في الدنيا قبل الآخرة.

سادساً: أن الظلم والاستبداد عدوّان لدودان للقيمِ الأخلاقيةِ وأهلِها، وهما لا يجتمعان أبداً، وأن الظالم يرتع إذا قصَّر العالم العامل في دوره فلم يؤده بالنحو المطلوب. والخطبة بعدُ تستحق بجدارة أن تقرأ مستقلةً.

لهذه الأسباب؛ كما جاء في هذه الخطبة، وأسباب أخرى ذُكِرت في مواضع أخرى، أعلن الإمام الحسين عليه السلام رفضه القاطع لبيعة يزيد معلِّلاً ذلك بالانحطاط الأخلاقي الذي شاع عنه وذاع، فقال عليه السلام:

«**إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، وبنا فتح الله، وبنا ختم الله.**

ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق.

ومثلي لا يبايع مثله...»[1].

وأما العناوين العريضة لدواعي النهضة الحسينية الخالدة، فقد أجملها قائد النهضة الإمام الحسين عليه السلام بقوله:

«اللهم إنك تعلم أنه لم يكن ما كان منا تنافساً في سلطان، ولا التماساً من فضول الحطام، ولكن لنُرِي

---

(١) ابن طاووس، السيد علي بن موسى، اللهوف في قتلى الطفوف، فصل أخذ البيعة ليزيد، ص١٧.
أقر بهذا الواقع السيء ليزيد ـ لاحقاً ـ آخرون؛ كان في صدارتهم جمهور أهل المدينة الذي خلعوا بيعة يزيد، فعاقبهم بما صدَّق مقولة الإمام الحسين عليه السلام؛ حيث أبيحت المدينة المنورة وارتكب فيها وفي أهلها ما تقشعر له الأبدان؛ من قتل وهتك عرض وسلب مال؛ مما سطره كل من كتب حول ما عُرف بـ(وقعة الحرة).
قال ابن كثير ف يوصف الحادثة وأسبابها:
وكان سبب وقعة الحرة أن وفداً من أهل المدينة قدموا على يزيد بن معاوية بدمشق؛ فأكرمهم، وأحسن جائزتهم، وأطلق لأميرهم ـ وهو عبدالله بن حنظلة بن أبي عامر ـ قريباً من مائة ألف، فلما رجعوا ذكروا لأهليهم عن يزيد ما كان يقع منه من القبائح في شربه الخمر، وما يتبع ذلك من الفواحش التي من أكبرها ترك الصلاة عن وقتها، بسبب السُّكر، فاجتمعوا على خلعه، فخلعوه عند المنبر النبوي) [البداية والنهاية/ ذكر الأخبار عن وقعة الحرة، ج٦، ص٢٦٢].
ونقل ابن كثير ـ في موضع آخر عن نتائج الحادثة القبيحة ـ أن جند يزيد **(وقعوا على النساء...** [حتى] **ولدت ألفُ امرأة من أهل المدينة بعد وقعة الحرة من غير زوج)** ولم ينكره أو يتحفظ عليه [البداية والنهاية، ج٨، ص٢٤١].



المعالم من دينك، ونظهر الاصلاح في بلادك، ويأمن المظلومون من عبادك، ويعمل بفرائضك وسننك وأحكامك».

القيمة الأولى: الرفض التام للهث على الدنيا؛ وبالخصوص في الزعامة والرئاسة والوجاهات الزائفة.

القيمة الثانية: الحرص على بيان القيم الدينية والمعارف الربانية والأحكام الإسلامية وتبليغها بين الناس.

القيمة الثالثة: العمل الإصلاحي الجاد في جميع الاتجاهات.

القيمة الرابعة: نشر السلم والأمن بين الناس ورفض أي سلوك عدواني بهدف إخافة الناس وإرعابهم بغير حقٍّ.

القيمة الخامسة: السعي الحثيث؛ وبالطرق المشروعة والحميدة، لتجسيد التدين على المستوى السلوكي بين الأفراد والجماعات.

ومهما أطلنا الحديث وشعَّبناه فلن نخرج عن سطوع البعد الأخلاقي للنهضة الحسينية في ما يتعلق بالدوافع والبواعث الأخلاقية.

والدرس المهم الذي يجب أن نتعلمه من النهضة الحسينية هو: أن أعمالنا؛ لكي تكون مقبولةً ومرضيةً ونافعةً نفعاً حقيقياً، يجب أن تكون مبنيةً على أساس النوايا الحسنة والدوافع النبيلة، وخلاف ذلك ستكون حسرةً على صاحبها

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان/ ٢٣]. وقال إمامنا علي بن أبي طالب عليه السلام: (**وأحبُّ العباد إلى الله المتأسي بنبيه، والمقتصُّ أثرَه**)[١].

وما أحوجنا على المستوى الشخصي، وما أشدَّ احتياج ساحتنا الإسلامية العامة والخاصة، إلى التخلق بأخلاق النهضة الحسينية على مستوى الدوافع؛ حتى لا يكون إقدامُنا ولا إحجامنا لمسائل شخصية بل لنيل رضا الله تعالى ورضوانه، وما أجمل قول روح الله عيسى عليه السلام؛ في ما حكاه الله عنه مخاطباً حوارييه بقوله: ﴿وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران/ ٧٩].



(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠.

الفصل الثاني

أخلاقية النهضة الحسينية على مستوى الأهداف والغايات

النهضة الحسينية تمتاز بأنها (أخلاقيةٌ) ليس على مستوى الدواعي والبواعث فحسب، وإنما على مستوى الأهداف والغايات أيضاً، مضافاً إلى مستوى الممارسة التي ينتظم فيها الفعل ورد الفعل. وقد حافظت على أخلاقيتها في جميع مراحلها ودعت أنصارها إلى أن يكونوا كذلك على الدوام.

وهذا ـ بالتأكيد ـ امتيازٌ جعل من هذه النهضة (ربانية)، تكفل الله عز وجل بنصرها وعداً غير مكذوب[1].

(١) روى الحاكم في المستدرك عن ابن عباس؛ وصححه، أنه قال: **أوحى الله تعالى إلى محمدٍ صلى الله عليه [وآله] وسلم: إني قتلتُ بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً، وإني قاتلٌ بابن ابنتك سبعين ألفاً وسبعين ألفاً**)، باب (أول فضائل أبي عبدالله الحسين بن علي الشهيد رضي الله عنهما ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله)، الحديث ٤٨٢٢، وعلق الذهبي على الحديث في التلخيص قائلا (على شرط مسلم).

وهذا ما أكده الشوكاني بقوله معلقاً على الحديث: قال في اللآلئ: أخرجه الحاكم في المستدرك من طريق ستة أنفس عن أبي نعيم. وقال [أي الحاكم]: =

وإنما قلنا أن هذا يعد امتيازاً لهذه النهضة لأن كثيراً من النهضات والثورات السياسية والاجتماعية والفكرية قد تكون أخلاقيةً في دوافعها، ولكنها ـ لسببٍ أو لآخر ـ تنحرف على مستوى الأهداف والغايات، أو تنحرف على مستوى

=صحيح، ووافقه الذهبي في تلخيصه، وقال: إنه على شرط مسلم) [الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، الحديث ١١٠، ص٣٨٨].

وفي الخبر عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر [الباقر] عليه السلام؛ **في قوله ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾، قال: هو الحسين بن علي عليه السلام قتل مظلوما ونحن أولياؤه. والقائم منا إذا قام طلب بثأر الحسين عليه السلام فيقتل؛ حتى يقال: قد أسرف في القتل!**

وقال [أي الباقر]: المقتول الحسين، ووليه القائم، والإسراف في القتل أن يقتل غير قاتله، إنه كان منصورا؛ فإنه لا يذهب من الدنيا حتى ينتصر برجلٍ من آل رسول الله عليهم الصلاة والسلام يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما) [تفسير العياشي، وعنه بحار الأنوار، أبواب ما يختص بتاريخ الحسين بن علي صلوات الله عليهما، باب ٢٨ ـ الآيات المؤولة لشهادته صلوات الله عليه و أنه يطلب الله بثأره، الحديث ٧، ج٤٤، ص٢١٨.

أقول: المقصود بقتل غير قاتله قتل خصوص الراضين بقتل الحسين السائرين على نهج قتلته في العدوان على الناس. ويشهد لذلك ما رواه الشيخ الصدوق بسند معتبر عن عبد السلام بن صالح الهروي، قال: **قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله! ما تقول في حديث روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: إذا خرج القائم قتل ذراري قتلة الحسين عليه السلام بفعال آبائها؟!**

فقال عليه السلام: هو كذلك!

فقلت: وقول الله عز وجل ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ما معناه؟!

قال: صدق الله في جميع أقواله، ولكن ذراري قتلة الحسين عليه السلام يرضون بفعال آبائهم، ويفتخرون بها، ومن رضي شيئا كان كمن أتاه. ولو أن رجلاً قُتِل بالمشرق فرضي بقتله رجلٌ بالمغرب لكان الراضي؛ عند الله عز وجل، شريكَ القاتل. وإنما يقتلهم القائمُ عليه السلام إذا خرج لرضاهم بفعل آبائهم...) [علل الشرائع للشيخ الصدوق، باب العلة التي من أجلها يقتل القائم عليه السلام ذراري قتلة الحسين عليه السلام بفعال آبائها].

الممارسة، أو على كلا المستويين. كما أنها قد تكون أخلاقيةً في هذا وذاك غير أنها لا تبقى على خط الأخلاق والقيم.

ولعل هذا هو ما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء/ ٨٠]. قال السيد الطباطبائي: الدخول والخروج في كل أمر منعوتاً بالصدق، جارياً على الحقيقة، من غير أن يخالف ظاهرُهُ باطنَهُ، أو يضاد بعضُ أجزائه بعضاً؛ كأن يدعو الإنسانُ بلسانه إلى الله وهو يريد بقلبه أن يسُود الناس، أو يخلص في بعض دعوته لله ويشرك في بعضها غيره.

وبالجملة: (هو أن يرى الصدقَ في كلِّ مدخلٍ منه ومخرجٍ، ويستوعب وجوده فيقول ما يفعل، ويفعل ما يقول، ولا يقول ولا يفعل إلا ما يراه ويعتقد به، وهذا مقام الصديقين)[1].

بين الدواعي والأهداف:

قد تسأل وتقول: ما الفرق بين الدواعي والأهداف؟ أليسا شيئاً واحداً؟

الجواب: قد يقال بأنهما يعتبران شيئاً واحداً فلا يصح

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ذيل الآية الشريفة، ج١٣، ص١٧٦.

حينئذٍ التفرقةُ بينهما، وقد يعتبران متباينين فلابد من التفرقة بينهما. والفرق إنما هو في الاعتبار والقصد.

وما نريده بـ(الدواعي) هو تلك البواعث العميقة التي تتصل بالمقاصد العليا، وتتصل بروح العمل، ويمكن عدها من قبيل النيات الكامنة في النفوس ويتقرب بها إلى الله تعالى. وعلى هذا، يكون فساد الحاكم وانحراف جهاز الحكومة، ومسؤولية الإمام عليه السلام تجاه الأمة، والاستجابة لرأي الجماهير الثائرة، ومحاولة إرغامه عليه السلام على الذل والمساومة، ونوايا الغدر الأموي والتخطيط لقتل الإمام، وانتشار الظلم وفقدان الأمن، وتشويه القيم الإسلامية، ومحو ذكر أهل البيت عليهم السلام، والاستجابة لأمر الله ورسوله صلى الله عليه وآله، كل ذلك من قبيل الدوافع والأسباب، كما فعله مؤلفو موسوعة أعلام الهداية في الجزء الخامس؛ الذي خُصِّص لدراسة أحوال الإمام الحسين عليه السلام؛ في الصفحات ١٣٥ حتى ١٤١.

أما الأهداف فهي الغايات التي قد تكون مراداً دنيوياً فقط، لكن أريد به وجه الله ومصلحة الناس ونحو ذلك؛ مما حرص الشرع المبين على تنقيته من الشوائب. وعلى هذا، يعتبر تجسيدُ الموقف الشرعي تجاه الحاكم الظالم، وفضح بني أمية وكشف حقيقتهم، وإحياء السنة وإماتة البدعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإيقاظ

الضمائر وتحريك العواطف، من قبيل الأهداف، كما فعله مؤلفو أعلام الهداية أيضاً؛ في الصفحات ١٤٢ حتى ١٤٦.

ولا يخفى أن شيئاً من التداخل يمكن أن يلحظ بين الصنفين؛ والأمر سهل على كل حال.

وعلى أي حال، فأخلاقية النهضة في هذا المحور ملموسةٌ بوضوحٍ.

وكنماذج على ذلك نورد ما يلي:

أولاً: كشف الزيف الأموي

فقد بلغ حجم التشويه للتعاليم الإسلامية في المشروع الأموي حداً اختلط فيه الحق بالباطل بمستوى عميقٍ؛ صار معه العقل المسلم مشلولاً عاجزاً عن الحكم على الأمور؛ حتى تهيأ لأمثال بني أمية الطلقاء؛ مع كل ما ورد فيهم من الذم النبوي(١) مؤهَّلِين للإمامة والخلافة!! ومثل الحسين يعد خارجاً على الحكم الشرعي!! بل مستحقاً للقتل.

---

(١) قال السيوطي في تفسيره (الدر المنثور)؛ ذيل قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ [الإسراء / ٦٠]:

أخرج ابن أبي حاتم، عن يعلى بن مرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم أريت بنى أمية على منابر الأرض وسيتملكونكم فتجدونهم أرباب سوء، واهتم رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم لذلك؛ فأنزل الله ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾.

وأخرج ابن مردويه عن الحسين بن علي رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم أصبح وهو مهموم؛ فقيل: ما لك يا رسول الله؟! فقال: إني=

=أريت في المنام كأن بنى أمية يتعاورون منبري هذا. فقيل: يا رسول الله لا تهتم؛ فإنها دنيا تنالهم؛ فأنزل الله ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾.
وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي؛ في الدلائل، وابن عساكر، عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه، قال: رأى رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم بنى أمية على المنابر؛ فساءه ذلك؛ فأوحى الله إليه إنما هي دنيا أعطوها. فقرت عينه. وهي قوله ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ يعنى بلاء للناس.
وأخرج ابن مردويه، عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت لمروان بن الحكم سمعت رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يقول لأبيك وجدك أنكم الشجرة الملعونة في القرآن) [الدر المنثور، تفسير سورة الإسراء، الآية ٦٠].
وجاء في كتاب المعجم الموضوعي للإمام المهدي:
وقد روى السنة تفسير النبي«صلى الله عليه و آله» هذه الآية [آية الشجرة الملعونة] بالأئمة المضلين من بني أمية، كما في مجمع الزوائد: ٥/ ٢٤٣، عن أبي يعلى ووثقه: (عن أبي هريرة أن رسول الله«صلى الله عليه و آله» رأى في منامه كأن بني الحكم ينزون على منبره وينزلون! فأصبح كالمتغيظ فقال: ما لي رأيت بني الحكَم ينزون على منبري نزو القردة؟! قال: فما رؤي رسول الله مستجمعاً ضاحكاً بعد ذلك حتى مات«صلى الله عليه و آله»)! وفي: ٥/ ٢٤٠، عن عبدالله بن عمرو، وصححه قال: كنا جلوساً عند النبي وقد ذهب عمرو بن العاص يلبس ثيابه ليلحقني فقال«صلى الله عليه و آله» ونحن عنده: ليدخلنَّ عليكم رجل لعين! فوالله ما زلت وجلاً أتشوَّف خارجاً وداخلاً حتى دخل فلان؛ يعني الحكم).
وفي معجم الطبراني الكبير: ٣/ ٩٠، عن الحسن بن علي رضي الله عنه، أنه قالَ لِمن اعترض على صلحه مع معاوية: رحمك الله فإن رسول الله قد أريَ بني أمية يخطبون على منبره رجلاً فرجلاً فساءه ذلك، فنزلت هذه الآية: إنَّا أعطيناك الكوثَر، نهر في الجنة. ونزلت ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، تملكه بنو أمية! قال القاسم: فحسبنا ذلك فإذا هو ألفٌ لا يزيد ولا ينقص). والبيهقي في فضائل الأوقات/ ٢١١، والترمذي: ٥/ ١١٥، والحاكم: ٣/ ١٧٠، وصححه وروى أحاديث أخرى في: ٣/ ١٧٥، و ٤: / ٧٤)!

وفي فتح الباري: ٨/ ٢٨٧: (عن ابن عباس أنه سأل عمر عن هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾؟ فقال مَن هم؟ قال: هم الأفجران من بني مخزوم وبني أمية، أخوالي وأعمامك! فأما أخوالي=

لذلك وجب على مثل الحسين عليه السلام أن ينهض ليكشف هذا التزييف للوعي بكل ما أوتي من علم وقدرة، ومن أجل أن لا يتحول دين الله إلى (مزرعة أموية)[1]. وفي هذا الصدد يقول في رسالة جوابية لأهل الكوفة: «فلعمري ما الإمام إلا

=فاستأصلهم الله يوم بدر وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى حين! ثم أورد حديث علي عليه السلام وقال: وهو عند عبد الرزاق أيضاً، والنسائي، وصححه الحاكم) [المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي (عج)، الشيخ علي الكوراني العاملي، فصل ١١ ـ أحاديث الشجرة الملعونة في القرآن تفسر المضلين ص١٨ ـ ١٩].

ومع أن هذه الروايات سنية والمصادر سنية فقد قال محمد عزة دروزة:

وننبه على أن الطبري يروي في صدد جملة ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [روايةً] مفادها أن النبي [ص] رأى في منامه بني فلان ـ وهذه عبارة الطبري ـ ينزون على منبره نزو القردة؛ فساءه ذلك، فما استجمع ضاحكاً حتى مات، وأنزل اللّه الآية.

وفي تفسير الخازن والكشاف إيضاحٌ؛ حيث جاء في روايتهما «أن النبي رأى في منامه ولد الحكم بن أمية يتداولون منبره فساءه ذلك»، وهذه الرواية تقتضي أن تكون الآية مدنية؛ لأنه لم يكن بُني مسجدٌ ومنبرٌ إلا في المدينة. وليس لهذا أيُّ سندٍ ولا مناسبةٍ في سياق في صدد مواقف كفار قريش.

ومنبر النبي صلى اللّه عليه [وآله] وسلم في مسجده في مدينته هو درجة أو درجتان وحسب.

ونحن نعتقد أن الرواية من مصنوعات الشيعة.

وفي تفسير الطبرسي الشيعي رواية عن الإمامين أبي جعفر وأبي عبد اللّه أن الشجرة الملعونة في القرآن هي بني أمية، والهوى الحزبي والتعسف بارزان على هذه الروايات شأن كثير مما يرويه مفسرو الشيعة) [التفسير الحديث، ج٣، ذيل الآية ٦٠ من سورة الإسراء].

(١) محمد خالد، خالد، أبناء الرسول في كربلاء، ص١٥٩.

الحاكم بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بدين الحقِّ، الحابس نفسه على ذات الله»[1].

وكشفُ هذا الزيفِ ليس مسألةً اجتماعيةً فحسب؛ وإن اصطبغ بهذه الصبغةِ، كما أنه ليس مسألةً فكريةً بحتةً، ولا هو مسألةٌ فقهيةٌ وعقائديةٌ محضةٌ، بل هو ـ إلى جانب ذلك كله ـ مسألةٌ أخلاقيةٌ بامتيازٍ؛ لأن صاحبَ المبادئ والقيم الأخلاقية يأبى؛ أشدَّ الإباء، أن يحصل هذا الزيفُ فضلاً عن أن يدوم.

ويترتب على حسِّ الرفض هذا القيامُ بما يؤكد كشفَ هذا الزيف؛ من أمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر، وهذا ما نقف عليه تحت العنوان الثاني.

ثانياً: تحمل المسؤولية من دون تقاعس

فقد ابتُلِيت الأمةُ ـ في مجموعها ـ بحالةٍ غريبةٍ من التواكل والتقاعس؛ مما هيَّأ الظروفَ لشريحة الطلقاء أن يمسكوا بأزمَّة الأمور وينكلوا بالأمة دون رادع من خارج ولا وازع من داخل. فأتيحت لهم فرصةٌ نادرةٌ للعبث بقيم الأمة وتعاليم الدين حتى بلغ السيل الزبى ليصف قائد النهضة عليه السلام الحال بقوله: «... **ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعةَ الشيطان، وتركوا طاعةَ الرحمن، وأظهروا الفسادَ،**

(١) تاريخ الطبري، حوادث سنة إحدى وستين، من ذكر الخبر عن مراسلة الكوفيين الحسين عليه السلام...، ج٥، ص٣٥٣.

وعطلوا الحدودَ، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله. وأنا أحق من غير»[1].

كما قال عليه السلام في وصف الحال: «**ألا ترون أن الحقَّ لا يُعمل به، وأن الباطلَ لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمنُ في لقاء الله محقاً**»[2].

ثالثاً: بناء الإنسان المبدئي

إن الناظر في الواقع الذي عايشه الإمام الحسين عليه السلام يجد أن غالبية الناس أصبحوا خواء من الانتماء الصادق، حتى صار الواحد من هؤلاء أشبه بالأنعام همهما علفها، وكان ارتباطهم بالدين قشرياً وهشاً.

وفي تشخيص هذه الحالة نقرأ ما روي عن الإمام عليه السلام وهو يصفهم بقوله: «**إن الناسَ عبيدُ الدنيا والدين لعْقٌ على ألسنتهم؛ يحوطونه ما درت معائشهم، فإذا مُحِّصوا بالبلاء قل الديَّانون**»[3].

والدرسْ المهم الذي يجب على الحسينيين؛ نهجاً وانتماءً، أن ينتبهوا له ويحرصوا عليه، هو أن يسيروا على

---

(١) تاريخ الطبري، حوادث سنة إحدى وستين، مقتل الحسين رضي الله عنه، ج٥، ص٤٠٤.

(٢) الحراني، ابن شعبة، تحف العقول، باب ما روي عن الإمام الحسين عليه السلام، قصار كلماته.

(٣) الحراني، ابن شعبة، تحف العقول، باب ما روي عن الإمام الحسين عليه السلام، قصار كلماته.

خطى إمامهم وقائدهم؛ في كشف الأدوار المشبوهة التي تنشط فيها جهاتٌ عديدةٌ أولاً، والعمل على تفعيل وتنشيط دور المسلم والمؤمن؛ ومن خلال طرد أسباب الكسل والخمول لديه ثانياً، وثالثاً ـ وأخيراً ـ العمل على تركيز حالة المبدئية فيه من خلال بنائه روحياً ومعرفياً.

رابعاً: تعميق الشعور بالحرية

كان قد ترسخ في وجدان الإمام الحسين عليه السلام أن داء العبودية قد استشرى في الأمة، حتى صار أغلبهم **(عبيد الدنيا)**[1]، وأصبح الدين عندهم انتقائياً بحيث يتدينون حيث تحفظ مصالحهم العاجلة فـ**(الدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درَّت معائشهم)**[2].

ولم يكن حالهم هذا يقف عند حدود الخنوع والخضوع دون طلب الدين الحقيقي، بل اندفعوا في عبوديتهم إلى حد العدوانية الصارخة على مقام النبي صلى الله عليه وآله من خلال العدوان على آله عليهم السلام؛ فتخلوا عن الحد الأدنى من القيم الأخلاقية التي تفرض أن يكون العربي معها حراً يأبى هذا المستوى

---

(١) الحراني، ابن شعبة، تحف العقول، باب ما روي عن الإمام الحسين عليه السلام، قصار كلماته.

(٢) الحراني، ابن شعبة، تحف العقول، باب ما روي عن الإمام الحسين عليه السلام، قصار كلماته.

من السقوط حتى لو لم يكن مسلماً، فدعاهم إلى أن يكونوا أحراراً في دنياهم، وأن يلتزموا بلوازم الانتماء للعروبة[1].

وهكذا في كلِّ حركةٍ نهضويةٍ لا يُرجَى أن تتحقق من دون أن يتعمق شعورُ الحرية في نفوس أبنائها، وإلى جانب ذلك تقتلع بذور العبودية والرقية التي تجعل صاحبها عاجزاً عن الحكم السليم على الواقع والوقائع والشخصيات، فيختلط الحقُّ عنده بالباطل، وقد يختار ـ من حيث يدرك أو لا يدرك ـ أن ينخرط في مشروع الرذيلة في مقابل مشروع الفضيلة.



---

(١) حيث خاطب أعداءه يوم العاشر بقوله: **ويحكم يا شيعة آل سفيان! إن لم يكن دينٌ، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم هذه، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم أعراباً [عرباً] كما تزعمون)** وقد أورد هذا النص؛ حسب كتاب موسوعة كلمات الإمام الحسين، المصادر التالية: مقتل الحسين عليه السلام ٢/ ٣٣، الفتوح لابن الأعثم ٥/ ١٣٤، تأريخ الطبري ٣/ ٣٣٣، اللهوف: ١١٩، البداية والنهاية ٨/ ٢٠٣، بحار الأنوار ٤٥/ ٥١، العوالم ١٧/ ٢٩٣، أعيان الشيعة ١/ ٦٠٩، الدمعة الساكبة ٤/ ٣٤٣.



الفصل الثالث

أخلاقية النهضة على مستوى الفعل ورد الفعل

في هذا الفصل يمكننا أن نرصد عشرات الأمثلة؛ إن لم نقل المئات، من صور النقاء الأخلاقي على مستوى الفعل ورد الفعل في النهضة الحسينية.

وتأتي أهمية هذا المحور من أن كثيراً من الناس أفراداً وجماعات؛ قد تكون دوافعهم وغاياتهم نبيلةً، قد ينجرفون ـ بوعي أو غير وعي ـ نحو اعتماد وسائل غير أخلاقية، وذلك إذا اشتدت الضغوطُ عليهم من خصومهم، فتتهاوى صروحهم الأخلاقية، ويستعيضون عنها بقيم سلبية تتناقض تماماً مع دوافعهم وغاياتهم.

وفي النهضة الحسينية نجد قائدَ النهضة وأبطالها قد التزموا الأخلاقية في أفعالهم فلم يبدر منهم ما يشوه نقاءهم وصفاءهم، كما كان ذلك هو نهجهم في ردود أفعالهم، مع أن العدوانية التي مارسها خصومهم في كربلاء كانت قد بلغت حد الدناءة والخسة بشكل غير مسبوق.

ولعل في ما روي بطريق معتبر عن الإمام الرضا عليه السلام ما يكشف عن حجم الجريمة التي ارتكبها أزلام بني أمية في كربلاء بحق الإمام الحسين عليه السلام.

فقد جاء في الخبر أن الريان بن شبيب:

«دخلتُ على الرضا عليه السلام؛ في أول يوم من المحرم، فقال لي: يا ابن شبيب! أصائمٌ أنت؟!

فقلت: لا.

فقال: إن هذا اليومَ هو اليومُ الذي دعا فيه زكريا ربَّه عز وجل؛ فقال ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[1]**، فاستجاب الله له، وأمر الملائكةَ فنادت زكريا** ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾[2]**. فمن صام هذا اليومَ، ثم دعا اللهَ عز وجل واستجاب الله له كما استجاب لزكريا عليه السلام. ثم قال:**

يا ابن شبيب! إن المحرم هو الشهر الذي كان أهلُ الجاهلية؛ في ما مضى، يحرمون فيه الظلم والقتال؛ لحرمته، فما عرفت هذه الأمةُ حرمةَ شهرِها، ولا حرمةَ نبيها. لقد قتلوا في هذا الشهر ذريتَه، وسبوا نساءَه، وانتهبوا ثقلَه. فلا غفر الله لهم ذلك أبداً.

يا ابن شبيب! إن كنت باكياً لشيء فابكِ للحسين بن

---

(١) آل عمرن/ ٣٨.

(٢) آل عمران/ ٣٩.

علي بن أبي طالب عليه السلام؛ فإنه ذُبح كما يذبح الكبش، وقُتِل معه من أهل بيته ثمانيةَ عشر رجلاً ما لهم في الأرض شبيهون، ولقد بكت السماوات السبع والأرضون لقتله.

ولقد نزل إلى الأرض من الملائكة أربعةُ آلافٍ؛ لنصره، فوجدوه قد قُتِل، فهم عند قبره شعثٌ غبرٌ إلى أن يقوم القائمُ؛ فيكونون من أنصاره، وشعارهم (يا لثارات الحسين).

يا ابن شبيب! لقد حدثني أبي، عن أبيه، عن جده، أنه لما قتل جدي الحسين أمطرت السماءُ دماً و تراباً أحمر.

يا ابن شبيب! إن بكيت على الحسين؛ حتى تصير دموعك على خديك، غفر الله لك كلَّ ذنب أذنبته؛ صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً كان أو كثيراً.

يا ابن شبيب! إن سرك أن تلقى اللهَ عز وجل ولا ذنبَ عليك فزُرْ الحسينَ عليه السلام.

يا ابن شبيب! إن سرَّك أن تسكن الغرفَ المبنيةَ في الجنة مع النبي صلى الله عليه وآله فالعن قتلةَ الحسين.

يا ابن شبيب! إن سرَّك أن يكون لك من الثواب مثل ما لمن استشهد مع الحسين فقل؛ متى ما ذكرته، يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً.

يا ابن شبيب! إن سرَّك أن تكون معنا في الدرجات العلى من الجنان فاحزن لحزننا، وافرح لفرحنا، وعليك

بولايتنا؛ فلو أن رجلاً تولى حجراً لحشره الله معه يوم القيامة»[1].

فنحن ـ إذن ـ وحسب هذا النص المعتبر ـ أمام جريمةٍ ليست عاديةً[2]، ولا يصح أن نقيسها بمقاييس الناس المتعارفة في الحكم على الجرائم، فالحسين عليه السلام إنسانٌ ربانيٌّ له علاقةٌ خاصة بالله وبرسوله، ولله ولرسوله علاقةٌ خاصةٌ به، وقد بلغ من الكمال مرتبةً صار معها وارثاً للأنبياء كما نقرأ ذلك في الزيارة المسماة بزيارة وارث.

ولو سايرنا النصَّ لوجدنا الإمام الرضا عليه السلام يأخذ بيد

---

(١) الأمالي للشيخ الصدوق، وعنه بحار الأنوار، تاريخ الإمام الحسين عليه السلام، باب ٤٤ ـ ثواب البكاء على مصيبته، ج٤٤، ص٣٨٦.

(٢) قال الثعلبي في ذيل قوله تعالى ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان/ ٢٩]: وذلك إن المؤمن إذا مات بكت عليه السَّماء والأرض أربعين صباحاً.
وقال عطاء: في هذه الآية بكاؤها حمرةُ أطرافها.
وقال السدي: **لَمَّا قُتِل الحسين بن علي (رضي الله عنهما) بكت عليه السَّماء. وبكاؤها حمرتها.**
حدثنا خالد بن خداش، عن حماد بن زيد، عن هشام، عن محمد بن سيرين؛ قال:
أخبرونا أنَّ الحمرةَ التي مع الشفق لم تكن، حتّى قُتِل الحسين رضي الله عنه).
أخبرنا ابن بكر الخوارزمي، حدثنا أبو العياض الدعولي، حدثنا أبي بكر بن أبي خيثمة، وبه عن أبي خيثمة، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا سليم القاضي، قال: **مُطِرنا دماً أيامَ قُتِل الحسين**) انتهى [تفسير الثعلبي، ج٨، ص٣٥٣ الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠٢ م].
أقول: وذكر نحواً من ذلك القرطبي في تفسير ذيل الآية نفسها، ج١٦، ص١٤١، الطبعة الثانية ـ دار الكتب المصرية ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤م.

الراوي؛ وبأيدينا، لمقاربة هول المأساة؛ من خلال التركيز على ما يلي:

أولاً: ضرورة استشعار الحزن واستحضار عمق المأساة من خلال (الصيام). الذي فسره الفقهاء، لأسباب يطول شرحها وتبيين ملابساتها، بالإمساك حتى العصر[1].

---

(١) قال الفقيه المحقق السيد الخوئي:
... لا إشكال في حرمة صوم هذا اليوم بعنوان التيمن والتبرك والفرح والسرور؛ كما يفعله أجلاف آل زياد والطغاة من بني أمية، من غير حاجة إلى ورود نص أبداً، بل هو من أعظم المحرمات، فإنه ينبئ عن خبث فاعله وخللٍ في مذهبه ودينه، وهو الذي أشير إليه في بعض النصوص المتقدمة؛ من أن أجره مع ابن مرجانة الذي ليس هو إلا النار، ويكون من الأشياع والأتباع الذين هم مورد اللعن في زيارة عاشوراء. وهذا واضح لا سترة عليه، بل هو خارج عن محل الكلام؛ كما لا يخفى.
وأما نفس الصوم في هذا اليوم؛ إما قضاءاً، أو ندباً، ولا سيما حزناً، فلا ينبغي التأمل في جوازه من غير كراهة فضلاً عن الحرمة حسبما عرفت.
[الرواية] الرابعة: وهي التي رواها الشيخ في المصباح، عن عبدالله بن سنان، قال:
(دخلت على أبي عبدالله عليه السلام يوم عاشوراء؛ ودموعه تنحدر على عينيه كاللؤلؤ المتساقط، فقلت: مِمَّ بكاؤك؟
فقال: أفي غفلة أنت؟! أما علمت أنّ الحسين عليه السلام أُصيب في مثل هذا اليوم؟!
فقلت: ما قولك في صومه؟
فقال لي: صمه من غير تبييت، وأفطره من غير تشميت، ولا تجعله يوم صوم كملاً، وليكن إفطارك بعد صلاة العصر بساعة على شربة من ماء، فإنّه في مثل ذلك الوقت من ذلك اليوم تجلَّت الهيجاء عن آل رسول الله (صلّى الله عليه وآله)).
وهي من حيث التصريح بعدم تبييت النية، وعدم تكميل الصوم، ولزوم الإفطار بعد العصر، واضحةُ الدلالة على المنع عن الصوم الشرعي، وأنه مجرد إمساكٍ صوريٌ في معظم النهار؛ تأسياً بما جرى على الحسين وأهله الأطهار عليهم صلوات الملك المنتقم القهار...) كتاب الصوم، ج٢، ص٣٠٥ ـ ٣٠٦.

ثانياً: الربط بين شخصية الحسين عليه السلام وشخصية زكريا عليه السلام؛ الذي كان ذريةً طيبةً وثمرةَ دعاءٍ صالحٍ لأبيه نبي الله زكريا عليه السلام. وفي ذلك إشارة إلى الدور الذي أنيط بالحسين عليه السلام؛ بتعرية وكشف حقيقة المتصدين للحكم؛ وهو الدور المشابه لما فعله يحي بن زكريا عليه السلام، واشتركت الشخصيتان في مصيرٍ متشابهٍ حيث استشهد كل منهما على يد السلطة.

ثالثاً: التركيز على ظرف الجريمة النكراء التي اقترفها قتلةُ الحسين عليه السلام وأنه شهر محترم ومحرم حتى لدى الجاهليين، في إشارةٍ واضحةٍ لمستوى الانحطاط الذي بلغه هؤلاء القتلة المعتدون، حيث اعتدوا على ذواتهم وعلى نبيهم بتعديهم على ذريته قتلاً وسبياً ونهباً وتنكيلاً.

رابعاً: تمييز مقتل الحسين عليه السلام ومصابه عن سائر المقاتل والمصائب، وأن ذلك يستدعي تخصيصه باهتمامٍ مناسبٍ للفاجعة وشهدائها، وأنها ستظل حيةً، وأن الواجبَ هو إحياؤها إلى أن يُقتص من قتلته بتقويض مشروعهم تقويضاً تاماً ويُقام على أنقاضه مشرع العدل الحسيني؛ بكل ما يختزنه ويستبطنه من قيمٍ أخلاقيةٍ تقطع دابر المروق عن عالم الفضيلة.

خامساً: أن العدوان على الحسين عليه السلام كان عدواناً على الله تعالى.

وقد كشف عظمَ ذلك ما أصاب السماء من حزن ترجمته

بالدم القاني الذي تقاطر منها والتراب الأحمر الذي قذفته على الأرض[1].

---

(١) قال العلامة الحلي: ولم يقنعوا بقتله حتى رضُّوا أضلاعَهُ وصدرَه بالخيول، وحملوا رؤوسهم على القنا، مع أن مشايخهم رووا أن يوم قتل الحسين قطرت السماء دماً. وقد ذكر الرافعي في شرح الوجيز، وذكر ابن سعد في الطبقات أن الحمرة ظهرت في السماء يوم قتل الحسين ولم تُر قبل ذلك. وقال أيضاً: ما رُفِع حجرٌ في الدنيا إلا وتحته الدم عبيط. ولقد مطرت السماءُ مطراً بقي أثره في الثياب مدة حتى تقطعت...) [منهاج الكرامة، ص٦٨].
ولم يرُق ذلك لابن تيمية، فرده بقوله: وأما ما ذكره من الأحداث والعقوبات الحاصلة بقتل الحسين... أن كثيرا مما روي في ذلك كذب، مثل كون السماء أمطرت دماً، [فإن هذا ما وقع قط في قتل أحد]، ومثل كون الحمرة ظهرت في السماء يوم قتل الحسين ولم تظهر قبل ذلك؛ فإن هذا من الترهات، فما زالت هذه الحمرة تظهر ولها سبب طبيعي من جهة الشمس، فهي بمنزلة الشفق.
وكذلك قول القائل: «إنه ما رفع حجر في الدنيا إلا وجد تحته دم عبيط».
هو أيضا كذبٌ بيِّنٌ) [منهاج السنة، ج٤، ص٥٥٩ ـ ٥٦٠، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية].
وتعقبه السيد علي الميلاني؛ في شرح منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، ج٢، ص٢٤٦ ـ ٢٤٧، موثقاً ما ذكره العلامة الحلي؛ بقوله:
أمّا الخبر الأوّل، فنقله العلاّمة رحمه اللّه عن (شرح الوجيز) للرافعي.
وهو في (التاريخ الكبير)، للبخاري و (أنساب الأشراف) للبلاذري و (الطبقات الكبرى) لابن سعد، و (المعجم الكبير) للطبراني و (دلائل النبوة) لأبي نعيم الأصبهاني، و (تاريخ دمشق) لابن عساكر.
وروى الذهبي قال: «قال جعفر بن سليمان: حدّثتني أم سالم خالتي قالت: لمّا قتل الحسين، مطرنا مطراً كالدم على البيوت والجدر».
وأمّا الخبر الثاني، فنقله عن (الطبقات الكبرى) لابن سعد. وقال الذهبي: قال المدائني عن علي بن مدرك، عن جدّه الأسود بن قيس قال: احمرّت آفاق السماء بعد قتل الحسين ستة أشهر يرى فيها كالدم. فحدّثت بذلك شريكاً فقال لي: ما أنت من الأسود؟ فقلت: هو جدّي أبو أمي. فقال: أما واللّهِ إن كان لصدوق الحديث.
وقال هشام بن حسان، عن ابن سيرين قال: تعلم هذه الحمرة في الأفق مم؟=

ولنسق نموذجاً من نماذج المقاربة للنهضة الحسينية في الفعل ورد الفعل للتعرف على منطق الإمام الحسين وأخلاقياته في مقابل منطق خصومه، كما قرأه هو عليه السلام، وكما قرأه بعض مَن كان على صلةٍ به بشكل أو بآخر.

ويستحسن ـ بالمناسبة ـ نقل حوار مطول جرى بينه وبين شخصيتين كبيرتين بعد أن خرج من المدينة المنورة ونزل بمكة. ونتلمس فيه طبيعة فعل الخصوم وكيف كان رد فعل الإمام الحسين عليه السلام.

والخبر ـ كما جاء في الصفحات ٣٧١ ـ ٣٧٥ من موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، نقلا عن الفتوح لابن أعثم ج ٥، ص ٢٣ ـ ٢٥ ـ يقول:

=هو من يوم قتل الحسين. رواه سليمان بن حرب، عن حماد، عنه.
وقال جرير بن عبد الحميد، عن يزيد بن أبي زياد قال: قتل الحسين ولي أربع عشرة سنة، وصار الوس الذي في عساكرهم رماداً، واحمرّت آفاق السماء، ونحروا ناقة في عساكرهم وكانوا يرون في لحمها النيران».
وأمّا قوله: «ما رفع حجر...» فهو مما رواه الطبراني وابن عساكر والهيثمي والذهبي والسيوطي وغيرهم عن الزهري، قال الذهبي: «وقال معمر بن راشد: أو ما عرف الزهري تكلّم في مجلس الوليد بن عبد الملك؟ فقال الوليد: تعلم ما فعلت أحجار بيت المقدس يوم قتل الحسين؟ فقال الزهري: إنه لم يقلب حجر إلا وجد تحته دم عبيط.
وروى الواقدي، عن عمر بن محمد بن عمر بن علي، عن أبيه قال: أرسل عبد الملك إلى ابن رأس الجالوت فقال: هل كان في قتل الحسين علامة؟ قال: ما كشف يومئذ حجر إلا وجد تحته دم عبيط».
ورواه الحافظ الطبراني بإسناده عن ابن شهاب الزهري. قال الحافظ الهيثمي بعد أن أخرجه: «رجاله رجال الصحيح») انتهى.

وأقام الحسين بمكة باقي شهر شعبان ورمضان وشوال وذي القعدة. قال: وبمكة يومئذ عبدالله بن عباس وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، فأقبلا جميعاً حتى دخلا على الحسين، وقد عزما على أن ينصرفا إلى المدينة؛ فقال له ابن عمر: أبا عبدالله! رحمك الله اتق الله الذي إليه معادك! فقد عرفتَ من عداوة أهل هذا البيت لكم وظلمهم إياكم، وقد ولي الناسَ هذا الرجلُ، يزيد بن معاوية، ولست آمن أن يميل الناسُ إليه لمكان هذه الصفراء والبيضاء [أي الدرهم والدينار]؛ فيقتلونك، ويهلك فيك بشرٌ كثيرٌ، فإني قد سمعت رسول الله (صلَّى الله عليه [وآله] وسلَّم) وهو يقول: حسينٌ مقتولٌ، ولئن قتلوه وخذلوه ولن ينصروه، ليخذلهم الله إلى يوم القيامة».

وأنا أشير عليك أن تدخل في صلح ما دخل فيه الناسُ، واصبر كما صبرتَ لمعاويةَ من قبلُ، فلعل اللهَ أن يحكم بينك وبين القوم الظالمين.

فقال له الحسين عليه السلام: **أبا عبد الرحمن! أنا أبايع يزيدَ؟! وأدخل في صلحه؟! وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وآله فيه وفي أبيه ما قال!!**

فقال ابن عباس: صدقتَ أبا عبدالله! قال النبي صلى الله عليه وآله في حياته: ما لي وليزيد لا بارك الله في يزيد! وإنه يقتل ولدي وولد ابنتي الحسين عليه السلام. والذي نفسي بيده لا يقتل ولدي

بين ظهراني قوم فلا يمنعونه إلا خالف الله بين قلوبهم وألسنتهم!

ثم بكى ابن عباس، وبكى معه الحسين، عليه السلام، وقال: يا ابن عباس! تعلم أني ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله؟

فقال ابن عباس: اللهم نعم، نعلم ونعرف أن [أنه] ما في الدنيا أحد هو ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله غيرك، وإن نصرَك لفرضٌ على هذه الأمة كفريضة الصلاة والزكاة التي لا يقدر أن يقبل أحدهما دون الأخرى.

قال الحسين عليه السلام: **يا ابن عباس! فما تقول في قوم أخرجوا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله من داره وقراره ومولده، وحرم رسوله، ومجاورة قبره، ومولده، ومسجده، وموضع مهاجره، فتركوه خائفاً مرعوباً لا يستقر في قرار، ولا يأوي في موطن، يريدون في ذلك قتله وسفك دمه، وهو لم يشرك بالله شيئاً، ولا اتخذ من دونه ولياً، ولم يتغير عما كان عليه رسول الله!؟**

فقال ابن عباس: ما أقول فيهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء/ ١٤٢ ـ ١٤٣]، وعلى مثل هؤلاء تنزل البطشة الكبرى، وأما أنت يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله! فإنك رأس الفخار برسول الله صلى الله عليه وآله

وابن نظيرة البتول[1]، فلا تظن يا ابن بنت رسول الله! أن الله غافل عما يعمل الظالمون، وأنا أشهد أن من رغب عن مجاورتك وطمع في محاربتك ومحاربة نبيك محمد ﷺ فما له من خلاق.

فقال الحسين عليه السلام: اللهم اشهد!

فقال ابن عباس: جعلت فداك يا ابن بنت رسول الله! كأنك تريدني إلى نفسك؟ وتريد مني أن أنصرك؟ والله [الذي] لا إله إلا هو! أن لو ضربت بين يديك بسيفي هذا حتى انخلع جميعا من كفي، لما كنت ممن أوفي من حقك عشر العشر! وها أنا بين يديك مرني بأمرك.

فقال ابن عمر: مهلاً، ذرنا من هذا يا ابن عباس!

ثم أقبل ابن عمر على الحسين عليه السلام فقال: أبا عبدالله! مهلاً عما قد عزمت عليه، وارجع من هنا إلى المدينة، وادخل في صلح القوم، ولا تغب عن وطنك وحرم جدك رسول الله ﷺ، ولا تجعل لهؤلاء الذين لا خلاق لهم على نفسك حجة وسبيلاً، وإن أحببت أن لا تبايع فأنت متروك حتى ترى برأيك، فإن يزيد بن معاوية ـ لعنه الله ـ عسى أن لا يعيش إلا قليلاً، فيكفيك الله أمره.

---

(١) المقصود بالبتول ـ هنا ـ مريم ابنة عمران، ونظيرتها البتول الزهراء عليها السلام. ووجوه التنظير بين هاتين السيدتين الكريمتين كثيرةٌ؛ منها (الاصطفاء)، (الطهارة)، ولسنا بصدد الحديث عن ذلك هنا.

فقال الحسين عليه السلام: أفٍّ لهذا الكلام!! أبداً ما دامت السماوات والأرض! أسألك بالله يا عبدالله! أنا عندك على خطأ من أمري هذا؟! فإن كنتُ عندك على خطأٍ فرُدَّني فإني أخضع وأسمع وأطيع.

فقال ابن عمر: اللهم لا! ولم يكن الله تعالى يجعل ابن بنت رسوله على خطأٍ، وليس مثلك من طهارته وصفوته من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على مثل يزيد بن معاوية ـ لعنه الله ـ باسم الخلافة، ولكن أخشى أن يضرب وجهك هذا الحسن الجميل بالسيوف، وترى من هذه الأمة ما لا تحب، فارجع معنا إلى المدينة، وإن لم تحب أن تبايع فلا تبايع أبداً، واقعد في منزل.

فقال الحسين عليه السلام: هيهات يا ابن عمر! إن القوم لا يتركوني وإن أصابوني، وإن لم يصيبوني فلا يزالون حتى أبايع وأنا كاره، أو يقتلوني، أما تعلم يا عبدالله! أن من هوان هذه الدنيا على الله تعالى أنه أتي برأس يحيي بن زكريا عليه السلام إلى بغية من بغايا بني إسرائيل والرأس ينطق بالحجة عليهم؟! أما تعلم ـ أبا عبد الرحمن ـ أن بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبياً، ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون كلهم؛ كأنهم لم يصنعوا شيئاً، فلم يعجل الله عليهم، ثم أخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر!

اتق الله ـ أبا عبد الرحمن ـ ولا تدعنَّ نصرتي واذكرني

في صلاتك، فوالذي بعث جدي محمداً ﷺ بشيراً ونذيراً لو أن أباك عمر بن الخطاب أدرك زماني لنصرني كنصرته جدي، وأقام من دوني قيامه بين يدي جدي.

يا ابن عمر! فإن كان الخروج معي مما يصعب عليك ويثقل فأنت في أوسع العذر، ولكن لا تتركنَّ لي الدعاء في دبر كل صلاة، واجلس عن القوم، ولا تعجل بالبيعة لهم حتى تعلم إلى ما تؤول الأمور.

قال: ثم أقبل الحسين عليه السلام على عبدالله بن عباس؛ فقال: يا ابن عباس! إنك ابن عم والدي، ولم تزل تأمر بالخير منذ عرفتك، وكنت مع والدي تشير عليه بما فيه الرشاد، وقد كان يستنصحك ويستشيرك فتشير عليه بالصواب، فامض إلى المدينة في حفظ الله وكَلائه، ولا يخفى عليَّ شيءٌ من أخبارك، فإني مستوطن هذا الحرم، ومقيمٌ فيه أبداً ما رأيت أهله يحبوني، وينصروني، فإذا هم خذلوني استبدلتُ بهم غيرهم، واستعصمتُ بالكلمة التي قالها إبراهيم الخليل عليه السلام يوم أُلقِي في النار (حسبي الله ونعم الوكيل) فكانت النار عليه برداً وسلاماً.

قال: فبكى ابن عباس وابن عمر في ذلك الوقت بكاءً شديداً، والحسين عليه السلام يبكي معهما ساعة، ثم ودعهما، وصار ابن عمر وابن عباس إلى المدينة، وأقام الحسين عليه السلام بمكة قد لزم الصوم والصلاة) انتهى.

وقفات في دلالات النص:

في هذا النص؛ الذي كان لابد من نقله كاملاً على طوله؛ لأنه يتضمن بيان خلفيات النهضة من جهةٍ، ويبيِّن إلى ذلك طبيعة الخصومة بين الفريقين من جهةٍ ثانيةٍ، كما أنه يكشف عن منهج التعامل مع النهضة من قبل الناس من جهةٍ ثالثةٍ، وفيه وقفاتٌ عديدةٌ. فإلى تلكم الوقفات:

الوقفة الأولى: النبل الحسيني والدناءة الأموية

في هذا الحوار سعى الإمام الحسين عليه السلام أن يبين حقيقةً لا يجوز أن تخفى على أحد؛ وهي أن الصراع الذي حصل لم يكن بين شخصين:

* يسمى الأول (يزيد)؛ الذي فرضه أبوه على الناس خليفةً!! يأمر وينهى بغير حقٍّ.
* ويسمى الثاني (الحسين)؛ الذي سعت السلطة إلى تصويره خارجاً على إمام زمانه، ويجوز ـ بالتالي ـ قتله وتصفيته.

بل إن هذا الصراع ـ في جوهره وحقيقته، وكما يجب أن يُفهم سابقاً ولاحقاً ـ هو صراع بين مشروعين:

١ ـ **مشروع الحق والفضيلة**[1]، وهو المشروع نفسه

(١) عن جابر قال: «من سره أن ينظر إلى رجلٍ من أهل الجنة فلينظر إلى الحسين بن علي؛ فإني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يقوله» [مجمع=

الذي صدع به رسول الله ﷺ، ويمثله في هذه الجولة من الصراع الإمامُ الحسينُ؛ بما يملك من مؤهلات ذاتيةٍ وموضوعيةٍ أقر بها المؤالف والمخالف، وشهد له بها قبل هؤلاء وأولئك رسول الله ﷺ؛ الذي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم/ ٣ ـ ٤]. وهذا المشروع هو نفسه مشروع الرسول ﷺ الذي يلزم الانحياز إليه ويحرم الانحياز ضده.

ومما يشهد على ذلك ما رواه أبو هريرة، قال: «**نظر رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) إلى علي وفاطمة والحسن والحسين، فقال: أنا حربٌ لمن حاربتم، وسلمٌ لمن سالمتم**»[1].

=الزوائد، الحديث رقم ١٥١١٠، ج٩، ص١٨٧].

بل إنه وأخاه الحسن عليه السلام بشهادة رسول الله ﷺ: «**سيدا شباب أهل الجنة**»، كما رواه أئمة الحديث من الشيعة والسنة؛ منهم الترمذي في سننه باب (مناقب أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب والحسين بن عليه بن أبي طالب رضي الله عنهما)، الحديث ٣٧٦٨، وذيله بقوله (حديثٌ، حسنٌ، صحيحٌ).

كما رواه الحاكم في مستدركه تحت الرقم (٤٧٧٨)، وعلق عليه بقوله هذا حديث قد صح من أوجه كثيرة، وأنا أتعجب أنهما [يعني البخاريَّ ومسلماً] لم يخرجاه.

ومن أوضح ما يعبر عن ربانية الحسين عليه السلام وقيَمه وقيامه هو قول النبي ﷺ المستفيض نقله (**حسينٌ مني وأنا من حسين، أحب اللهُ من أحب حسيناً، حسينٌ سبطٌ من الأسباط**) رواه الترمذي في سننه بالرقم (٣٧٧٥)؛ معقِّباً عليه بقوله (هذا حديثٌ حَسَنٌ).

(١) الثعلبي، أحمد بن محمد، تفسير الثعلبي ـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ذيل قوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، ج٨، ص٣١١.

وفي حديث آخر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**حُرِّمت الجنةُ على مَن ظلم أهل بيتي، وآذاني في عترتي...**»[(١)].

٢ ـ مشروع الباطل والهوى[(٢)]، وهو المشروع الذي تجسَّد في شخص يزيد؛ والذي وصفه بعض مَن سعى في الدفاع عنه بقوله (كان فيه إقبالٌ على الشهوات، وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات، وإماتتها في غالب الأوقات... يزيد بن معاوية أكثر ما نقم عليه في عمله شرب الخمر، وإتيان بعض الفواحش)[(٣)]، ووصفه آخر بأنه (فاسقٌ، شريرٌ، سكيرٌ، جائرٌ)[(٤)].

---

(١) الثعلبي، أحمد بن محمد، تفسير الثعلبي ـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ذيل الآية المباركة، ج٨، ص٣١٢.

(٢) وقد اتفقوا (على فسقه)؛ كما ذكر ذلك ابن حجر الهيتمي في الصواعق المحرقة، في خاتمة عقدها (في بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة في الصحابة...)، ج٢، ص٦٣٤.
وقال الذهبي؛ غير المتهَم بالتحامل على يزيد، في ترجمته: كان ناصبياً، فظاً، غليظاً، جلفاً، يتناول المسكرَ، ويفعل المنكرَ. افتتح دولته بمقتل الشهيد الحسين، واختتمها بواقعة الحرة؛ فمقته الناس ولم يُبارَك في عمره) سير أعلام النبلاء، ط. الحديثة، ترجمة يزيد بن معاوية، ج٥، ص٥.
لذلك قال التفتازاني؛ في ما حكاه عنه القسطلاني: الحق أن رضا يزيد بقتل الحسين (رضي الله عنه)، وإهانته أهل البيت النبوي، مما تواتر معناه؛ وإن كانت تفاصيله آحاداً؛ فنحن لا نتوقف في شأنه، بل في إيمانه لعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه) إرشاد الساري في شرح البخاري، باب قول النبي (صلى الله عليه [وآله] وسلم): هلاكُ أمتي على يدي أُغيلمة سفهاء)، ج١٠، ص١٧١.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، أحداث سنة ٦٤ هـ، فصل ترجمة يزيد بن معاوية، ج٨، ص٢٥٢، ٢٥٤، ط. دار إحياء التراث العربي.

(٤) الهيتمي، ابن حجر، الصواعق المحرقة، ج٢، ص٦٣٢.

وتجسَّد مشروع الباطل هذا في يزيد، وفي عمَّاله، وفي من ناصرهم ومالأهم وداهنهم، وفي من صمت عن باطلهم.

وفي النص؛ مورد البحث، صرَّح ابنُ عمر، الذي كشف عن طبيعة ميوله الممالئة لمشروع السلطة والمنحازة عن الإمام الحسين عليه السلام، صرَّح بـ(**عداوة أهل هذا البيت لكم، وظلمهم إياكم**).

فهناك ـ إذن ـ عداوةٌ آثمةٌ وظلمٌ بيِّنٌ لمن لا يجوز معاداته ولا ظلمه. وهذا يعني: أن النهضة الحسينية كانت مبرَّرةً ولو بلحاظ ما لحق بأهل البيت عليهم السلام من ظلم[1].

الوقفة الثانية: استشراء الطمع والجشع

أبان النصُّ، وعلى لسان ابن عمر أيضاً، أن المشروع الذي أرسى الرسولُ الأعظمُ صلى الله عليه وآله قواعدَه، قد تقوض من بعده، وذلك في قلقه من تفاعل الناس السلبي مع المشروع الحسيني، وذلك بقوله؛ أعني ابن عمر «**ولستُ آمنُ أن يميل الناسُ إليه؛ لمكان هذه الصفراء والبيضاء**».

وهو تعبير بالغ الدلالة باعتباره كاشفاً عن سياسة شراء الذمم التي اعتمدتها السلطة الأموية من جهة، وكاشفاً عن

(١) قال المناوي في فيض القدير: وتفصيل قصة قتله تمزق الأكباد وتذيب الأجساد؛ فلعنة الله على من قتله، أو رضي، أو أمر، وبُعداً له كما بعِدت عاد) فيض القدير في شرح الجامع الصغير، ج١، ص٢٠٤، ضمن التعليق على الحديث رقم ٢٨١ ونصه (أخبرني جبريل أن حسيناً يقتل بشاطئ الفرات).



مستوى الانحطاط الأخلاقي التي انتهى إليه جموع الناس حتى خشي ابنُ عمر؛ على ما كان عليه من الموقف المتخاذل تجاه الإمام الحسين ﷺ، أن ينتهوا إليه من اللامبالاة تجاه عدوانية السلطة لسبط الرسول ﷺ.

الوقفة الثالثة: الخنوع وحب الحياة

مع علم ابن عمر ومعرفته بما ستؤول إليه الأمور لو ترك مشروع بني أمية يسير كما يرجو أصحابه، ومع علمه بما سيترتب على ذلك من جرأةٍ أمويةٍ على جميع الناس؛ فلا يسلم منهم أحدٌ بكرامته، حيث يخاطب الإمامَ الحسينَ ﷺ بقوله «**فيقتلونك ويهلك فيك بشرٌ كثيرٌ**»، ومع علمه بأن ذاك هو ما أخبر عنه الرسولُ ﷺ كما سمعه بنفسه «**وهو يقول: حسينٌ مقتولٌ**»، ومع علمه بأن بني أمية إن هم قتلوا السبط ﷺ فسيكونون عدواناً لله ولرسوله ﷺ وأن عواقب ذلك ستكون وخيمة على الأمة، وهذا هو ما سمعه من الرسول ﷺ قائلاً «**ولئن قتلوه وخذلوه ولن ينصروه ليخذلهم الله إلى يوم القيامة**».

مع كل ذلك، نجد ابنَ عمر يتقدم بنصيحته ومشورته!! الغريبة فيقول «**وأنا أشير عليك أن تدخل في صلحٍ ما دخل فيه الناس**»، فهو يريد من الإمام ﷺ أن يساير الناسَ في موقفهم!! وأن يستسلم أمام السلطة وجبروتها!! بغضِّ النظر عن طبيعة الجرم والمجرم وظروف الجريمة، وبغض النظر

عما سيترتب على الصمت إزاءها على هذا الجيل والأجيال الآتية بل على الدين نفسه.

ولما كانت هذه المشورةُ غيرَ قويمةٍ، بل قبيحةً فقهياً وأخلاقياً، إلا أن ابن عمر ومن أجل رفع الاستيحاش عن كلامه فإنه سعى إلى تبريرها بقوله «**واصبر كما صبرتَ لمعاوية من قبل!**»، وكأنه يريد أن يسجل ملاحظةً على مشروع الإمام الحسين عليه السلام وما هو عازم عليه؛ من فعل الإمام نفسه؛ وهو أنه صبر وصمت إبان حكم معاوية، وكأنه يريد القول إذا جاز الصمت زمن معاوية فلم لا يجوز الصمت الآن؟! ولتعزيز هذا الرأي كان لابد من إضافة مقولة تضفي طابعاً إيمانياً عليه؛ حيث قال «**فلعل الله أن يحكم بينك وبين القوم الظالمين**».

الوقفة الرابعة: تقدم الحكم الشرعي على المخاوف الشخصية

سرعان ما أخذ الإمام الحسين عليه السلام في تفنيد رأي ابن عمر ومشورته؛ بتبيان ما يجب أن يكون الموقفُ الذي يختاره المسلم؛ وهو أن يقدم قولَ الله ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات/ ١]، وكان يجب أن يكون رد الإمام قوياً وحاسماً ولكنه في الوقت نفسه غير جارح لمن يختلف معه فكنى ابن بقوله «**أبا عبد الرحمن**»، ثم أضاف إليه قوله «**أنا**

أبايع يزيد؟! وأدخل في صلحه؟! وقد قال النبي ﷺ فيه وفي أبيه ما قال!»

وكأن الإمامَ عليه السلام يريد التنبيه إلى أمرين ـ على الأقل ـ :

الأمر الأول: أن القياسَ ممنوعٌ، فإذا جاز الصبر والصمت في زمان فليس بالضرورة يكون ذلك جائزاً في زمن آخر؛ إذا تغيرت ظروف الفعل والفاعل.

قال الله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص/ ٥٠]. وقد جاء في الخبر أن أبا حنيفة (دخل **على أبي عبدالله عليه السلام، فقال له: يا أبا حنيفة! بلغني أنك تقيس؟ قال: نعم. قال: لا تقِسْ؛ فإن أول من قاس إبليس؛ حين قال** ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف/ ١٢]، **فقاس ما بين النار والطين، ولو قاس نورية آدم بنورية النار عرف فضل ما بين النورين، وصفاء أحدهما على الآخر)**[١].

الأمر الثاني: أن الضرورة التي كانت سبباً للصبر والصمت إبان حكم معاوية لم تعد قائمة في زمان يزيد؛

---

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، كتاب العلم، باب البدع والرأي والمقائيس، الحديث ٢٠.

وفي مسند أبي حنيفة رواية أبي نعيم، ص٦٦ أنه قال له: **اتق الله، ولا تقيسنَّ للدين برأيك، فإن أول مَن قاس إبليس، إذ أمره بالسجود لآدم، فقال:** ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾...).

وفي حديث آخر في الكتاب نفسه [ص ٦٧]: **يا نعمان! أيهما أكبر، الصلاة أم الصيام؟ قال: بل الصلاة. قال: فيما كان الحائض تقضي ما أفطرت، ولا تقضي ما تركت الصلاة! إن دين الله ليس بالقياس، إنما هو الاتباع)** .



لأسباب كثيرة؛ منها: ظهور الباطل عند يزيد، وخفائه على كثير من الناس عند معاوية.

الوقفة الخامسة: التركيز على الحقيقة والفضيلة

لا يكتفي الإمام الحسين عليه السلام في شرح أهداف نهضته وطبيعتها في أدواتها ووسائلها وفعلها ورد فعلها، وأنها ربانية لا يجوز خذلانها. وذلك انطلاقاً من تعاليم الإسلام التي تفرض أن يكون نشدانُ الحق، والتناغمُ مع مقتضيات الفضيلة، هو الحاكمَ على توجهات المسلم.

وتأسيساً على ذلك، أخذ الإمام الحسين عليه السلام بتقرير سلسلة حقائق وفضائل تلزم مَن يقول بها أن يناصره ولا يقف متفرجاً؛ فضلاً عن أن يستسلم للمشروع الأموي المناهض لجوهر الإسلام، فقرر عليه السلام ووافقه ابن عباس (ره) في تقريرها:

الحقيقة الأولى: هي أنه عليه السلام «ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله»، فأقر بذلك ابن عباس وأكد أنه عليه السلام المتفرد بهذه الحقيقة.

ومن الواضح أن المقصود هنا ليس هو البنوة النسبية فحسب؛ فهي وحدها ليست كافية لإلزام الناس باتباع أبناء الأنبياء، وإنما هي البنوة المشروعية معززةً بالبنوة النسبية. قال الله تعالى على لسان إبراهيم ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [إبراهيم/ ٣٦].

ولعل وضوح هذا المعنى في الصدر الأول هو ما أغنى عن توضيحه وبيانه.

الحقيقة الثانية: هي أن نصرته عليه السلام على الأمة أمرٌ مفروضٌ على مستوى «**الصلاة والزكاة التي لا يقدر أن يقبل أحدهما دون الأخرى**».

فالحسين عليه السلام ـ إذن ـ ليس شخصاً؛ وإن كان له تشخصه الذاتي، بل هو مشروعٌ إسلاميٌّ يجب الإيمان به والوقوف إلى جانبه، كما فرض الله محبته في قوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى/ ٢٣].

وقد روي عن ابن عباس أنه قال: لَمَّا نزلت ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قالوا: يا رسول الله! مَن قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟

قال: علي وفاطمة وأبناءهما)[1].

وقد روى الثعلبي بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**حُرِّمت الجنةُ على مَن ظلم أهل بيتي، وآذاني في عترتي...**»[2].

(١) الثعلبي، أحمد بن محمد، تفسير الثعلبي ـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ذيل الآية المباركة، ج٨، ص٣١٠.

(٢) الثعلبي، أحمد بن محمد، تفسير الثعلبي ـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ذيل الآية المباركة، ج٨، ص٣١٢.



الحقيقة الثالثة: أن المشروع الأموي مجانب للحق وللفضلة

انتهز عليه السلام بعد ذكر الحقيقتين الأوليين الفرصة من أجل تسليط الضوء على فعل بني أمية المجانب للحق وللفضيلة بشكلٍ صارخٍ، وذلك ليسهل استيعابُ رد الفعل الحسيني وكم كان أخلاقياً. أما المجانبة فقد كانت في مراحلها الأولى ـ كما قررها الإمام الحسين عليه السلام ـ على النحو التالي:

«قال الحسين عليه السلام: يا ابن عباس! فما تقول في قوم أخرجوا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله من داره وقراره ومولده، وحرم رسوله، ومجاورة قبره، ومولده، ومسجده، وموضع مهاجره، فتركوه خائفاً مرعوباً لا يستقر في قرارٍ، ولا يأوي في موطنٍ، يريدون في ذلك قتله وسفك دمه، وهو لم يشرك بالله شيئاً، ولا اتخذ من دونه ولياً، ولم يتغير عما كان عليه رسول الله!؟

فقال ابن عباس: ما أقول فيهم إلا ﴿أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة/ ٥٤]، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء/ ٩٣ ـ ٩٤]، وعلى مثل هؤلاء تنزل البطشة الكبرى، وأما أنت يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله! فإنك رأس الفخار برسول الله صلى الله عليه وآله وابن نظيرة البتول، فلا تظنَّ يا ابن بنت

رسول الله! أن الله غافل عما يعمل الظالمون، وأنا أشهد أن مَن رغب عن مجاورتك وطمع في محاربتك ومحاربة نبيك محمد ﷺ فما له من خلاق.

فقال الحسين عليه السلام: اللهم اشهد!»

وإلى هنا أخذ الإمامُ الحسينُ عليه السلام بتبرير موقفه، مع عدم الحاجة إلى ذلك لو أن الأمة أخذت بما جاء في حقه في الكتاب والسنة. ففعلُ بني أمية غيرُ أخلاقيٍّ، بل هو عدوانٌ صارخٌ وجرمٌ مشهودٌ، وردُّ فعلِ الإمام عليه السلام برفض بيعة يزيد هو شرعيٌّ تماماً ولا غبارَ عليه.

الوقفة السادسة: وجوب الانحياز إلى النهضة

ماذا على الناس أن يفعلوا مع عزم الإمام الحسين عليه السلام على النهضة في وجه سلطة يزيد؟

تتأرجح الإجاباتُ بين ما هو أخلاقي وما هو غير أخلاقي؛ على تفاوتٍ بينها في الحكم عليها بهذا وذاك.

والمواقف تجاه النهضة الحسينية كانت لا تخلو من اختيارِ واحدٍ من ثلاثة:

الموقف الأول: معاداة النهضة بالانحياز التام إلى السلطة وتبني خياراتها العدوانية تجاه الإمام الحسين عليه السلام.

الموقف الثاني: مناصرة النهضة بالانحياز المطلق إلى الإمام الحسين عليه السلام والعمل وفقاً لتوجيهاته؛ سواء بالمسير معه نحو العراق أو المكث في الحجاز.

الموقف الثالث: اعتزال النهضة والسلطة معاً.

وفي تقييمنا للمواقف سيكون مَن تبنى الموقف الثاني هو وحده الذي لبى نداء الحسين عليه السلام، وأما أصحاب الموقف الأول فهم أعداء من الطراز الأول من دون شك، وأما أصحاب الموقف الثالث فقد خذلوا الحسين عليه السلام، وهم في الواقع معادون؛ ولكن بطريقةٍ سلبيةٍ، وهم غير أخلاقيين في ما اختاروه؛ لأنهم تنحَّوا جانباً وهم يرون الفضيلةَ المجسَّدةَ في رمزها؛ أعني سبط الرسول صلى الله عليه وآله، تُنتهك.

وإذا عدنا إلى النص لوجدنا أمامنا نموذجين مختلفين:

١ ـ في التشخيص

٢ ـ في الاستجابة.

النموذج الأول: من يصوِّب الإمام الحسين عليه السلام في اختياره ويعرض عليه النصرة والمساندة.

ولنتأمل في النص «**فقال ابن عباس: جعلت فداك يا ابن بنت رسول الله! كأنك تريدني إلى نفسك؟ وتريد مني أن أنصرك؟ والله [الذي]، لا إله إلا هو! أن لو ضربت بين يديك بسيفي هذا حتى انخلع جميعاً من كفي، لَما كنتُ ممن أوفي من حقك عشر العشر! وها أنا بين يديك مُرْني بأمرك**».

النموذج الثاني: مَن لم يقتصر على عدم المناصرة فقط، بل كان عنصر تخذيل لصاحب النهضة.

ولنتأمل في النص «**فقال ابن عمر: مهلاً، ذرنا من هذا يا ابن عباس!**

ثم أقبل ابن عمر على الحسين عليه السلام فقال: أبا عبدالله! مهلاً عما قد عزمت عليه، وارجع من هنا إلى المدينة، وادخل في صلح القوم، ولا تغب عن وطنك وحرم جدك رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا تجعل لهؤلاء الذين لا خلاق لهم على نفسك حجة وسبيلاً، وإن أحببت أن لا تبايع فأنت متروك حتى ترى برأيك، فإن يزيد بن معاوية ـ لعنه الله ـ عسى أن لا يعيش إلا قليلاً، فيكفيك الله أمره».

المنطق الانهزامي أخطاء وخطايا:

لا يسوغ لنا أن نمر مرور الكرام على منطق الانهزام هذا دون أن نسجل عليه بعض الملاحظات؛ التي يجب التنبه لها؛ ذلك أن عبدالله ابن عمر، وقد مثَّل في خياره هذا شريحةً واسعةً من المسلمين؛ هي جميع مَن بلغهم استنصار الإمام الحسين عليه السلام فلم يُجيبوه. فهذا، ومن على شاكلته، يتبنون منطقاً انهزامياً من الناحية النفسية من جهة، وهو بعيدٌ كل البعد عن الموقف الأخلاقي من ظلم الظالم وعدوان المعتدي من جهة ثانية، كما أنه خالف تعاليم الكتاب والسنة من جهة ثالثة، وقد تراكمت عليه أخطاء وخطايا في منطقه غير القويم هذا.

أما ـ أولاً ـ فهو يستهجن عرضَ النصرة؛ بقوله لابن

عباس الذي وُصف بأنه حبر الأمة والذي دعا له رسول الله ﷺ بالفقه[1] «**ذرنا من هذا**». وهو تعبيرٌ غيرُ لائقٍ في حق ابن عباس رضي الله عنه؛ الذي لم يقل غيرَ ما كان اللائقُ بمثله أن يقوله.

ثم إن ابن عمر يستخف ـ ثانياً ـ بعزم الإمام الحسين عليه السلام على إكمال مسيرته الاعتراضية؛ بقوله «**مهلاً عما قد عزمت عليه، وارجع من هنا إلى المدينة، وادخل في صلح القوم**». وهذا القولُ منه منافٍ للفقه؛ لأن الحسين عليه السلام أفقهُ منه من دون ريبٍ، ومثله عليه السلام لا يسوغ لمثل ابن عمر أن يخاطبه بمثل هذا القول؛ فقد قال النبي ﷺ: «**أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي، فإني سألت اللهَ عز وجل أن لا يفرق بينهما حتى يوردهما علي الحوض، فأعطاني ذلك وقال: لا تعلموهم فهم أعلم منكم. وقال: إنهم لن يخرجوكم من باب هدى، ولن يدخلوكم في باب ضلالة**»[2].

---

(١) انظر ترجمته في الطبقات الكبرى لابن سعد، وغيره من كتب التراجم.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، كتاب الحجة، باب ما نص الله عز وجل ورسوله على الأئمة واحدا فواحداً، الحديث ١.

وفي المعجم الكبير للطبراني، ج٣، ص٦٦ أنه ﷺ قال:

«إني لكم فرط، وإنكم واردون علي الحوض، عرضه ما بين صنعاء إلى بصرى، فيه عدد الكواكب من قدحان الذهب والفضة، فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين».

فقام رجل؛ فقال: يا رسول الله وما الثقلان؟

فقال رسول الله(صلى الله عليه [وآله] وسلم): «الأكبر كتاب الله، سبب طرفه=

ثم إن هذا القول منافٍ للأخلاق التي تفرض أن يقال لظالمٍ؛ مثل يزيد، إنه ظالم، ويُنتصَر للمظلوم منه.

كما أن هذا القولَ من ابن عمر منافٍ للمنطق؛ حيث إن ثمة مشروعاً انقلابياً على التعاليم الإسلامية يُراد تنفيذه، كما تؤكده الأقوال والأفعال السابقة للنهضة وأثناءها، وكذلك اللاحقة لها؛ حتى اتفق علماء السنة على فسقه؛ كما قدمناه عن ابن حجر الهيتمي[١]، بل إن فسقه لا حاجة لأن يستدل عليه فقد (ظهر فسقُ يزيد عند الكافّة من أهل عصره)[٢].

وهو ـ ثالثاً ـ يتعمد الخلط، أو على الأقل يجهل فيخلط بين ما هو مقدم وما هو مؤخر في المفاهيم الشرعية؛ حيث يجعل التقدم لجوانب صورية وشكلية على حساب مواقف ذات أولوية مطلقة، ويقول «**ولا تغب عن وطنك وحرم جدك رسول الله ﷺ**» ولا أدري ما هي أهمية الحضور في مدينة رسول الله ﷺ في حين أن شريعة هذا الرسول ﷺ

=بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به لن تزالوا، ولن تضلوا، والأصغر عترتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوضَ، وسألت لهما ذاك ربي. فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تعلموهما؛ فإنهما أعلم منكم».

(١) الهيتمي، ابن حجر، الصواعق المحرقة، ج٢، ص٦٣٤، في خاتمة عقدها بعنوان (في بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة في الصحابة...).

(٢) عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، الناشر دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م، ج١، ص٢٦٩.

تتعرض للتزييف والطمس من قِبَل من سمَّى نفسَهُ ـ زوراً ـ خليفة رسول الله ﷺ.

ثم إنه ـ رابعاً ـ يكاد يبرر لهؤلاء المعتدين فعلتهم بقوله «**ولا تجعل لهؤلاء الذين لا خلاق لهم على نفسك حجةً وسبيلاً**» .وهكذا، وحسب هذا المنطق، تصبح الحجة للظالم على المظلوم، وكأن لسان حاله يقول سنخذلك حياً وميتاً، لأننا لن نبرر فعلك ونستهجن فعلهم، فقد نصحناك أن لا تخرج فخالفت نصيحتنا ولم تقبل مشورتنا.

وبعد ذلك فإن ابن عمر ـ خامساً ـ ينصب نفسه ناطقاً باسم السلطة الغاشمة ويعرض عليه السلامة إن هو لم يخرج وينتفض، فيقول «**وإن أحببتَ أن لا تبايع فأنت متروكٌ حتى ترى برأيك**». مع أن الشواهد؛ التي توفرت لدى الإمام الحسين عليه السلام، تؤكد بأجمعها أن السلطةَ قد عقدت العزمَ على تصفيته جسدياً[1].

---

(١) قال الشيخ المجلسي عن السيد المرتضى قوله: روي بأسانيد: **أنه لما منعه عليه السلام محمد بن الحنفية عن الخروج إلى الكوفة قال: والله ـ يا أخي ـ لو كنت في جحر هامة من هوام الأرض لاستخرجوني منه حتى يقتلوني**) بحار الأنوار، ج٤٥، ص٩٩.
وقال مخاطبا ابن الزبير: ...**وايم الله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا بي حاجتهم! والله ليعتدن علي كما اعتدت اليهود في السبت**) تاريخ الطبري، حوادث سنة ستين، ذكر مسير الحسين إلى الكوفة، ج٥، ص٣٨٥.
وانظر أيضاً: الكامل لابن الأثير، حوادث سنة ستين، ذكر مسير الحسين إلى=



ولا يكتفي هذا النموذج بما تقدم بل يترقى؛ في خطأ أو خطيئة سادسة، لما يشبه ادعاء العلم بالغيب، حيث يقول **«فإن يزيد بن معاوية ـ لعنه الله ـ عسى أن لا يعيش إلا قليلاً، فيكفيك الله أمرَهُ»**. وهي محاولةٌ يائسةٌ وبائسةٌ معاً من أجل ثَنْي أبيٍّ الضيم عن الاستمرار في مسيرته الأخلاقية؛ لتعرية هذا المشروع المنحرف في قيمه والمشوه في قادته وقواعده.

لذلك سرعان ما خاطبه الإمام الحسين عليه السلام بقوله الحاسم والشديد **«أفٍّ لهذا الكلام أبداً ما دامت السماوات والأرض!»**.

ثم أردف الإمامُ عليه السلام قولَهُ هذا بالتأكيد على ما يجب أن

=الكوفة، ج٣، ص١٤٣، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧م.

وكذلك: نهاية الإرب في فنون الأدب، ذكر مسير الحسين إلى الكوفة، ج٢٠، ص٤٠٧.

بل إن بعض المصادر ذكرت أن الحسين عليه السلام (لم يتمكن من إتمام الحج مخافة أن يبطش به ويقع الفساد في الموسم وفي مكة، لأن يزيد أرسل مع الحجاج ثلاثين رجلاً من شياطين بني أمية وأمرهم بقتل الحسين على كل حالٍ) ينابيع المودة للقندوزي، ج٣، ص٥٩، فصل خروج الحسين(عليه السلا) من مكة.

وليس سياسة الاغتيال بمستغربة على السلطة الأموية؛ فقد اعتمدت زمن معاوية وذهب ضحيتها مشاهيرُ؛ كالإمام الحسن عليه السلام، وسعد بن أبي وقاص، ومالك الأشتر، ومحمد بن أبي بكر، ولم يكن آخرهم عبدالله بن عمر نفسه الذي روي أنه اغتيل بتدبير من الحجاج زمن عبدالملك المرواني. ولمعرفة التفاصيل يراجع كتاب (النصائح الكافية لمن يتولى معاوية) للسيد محمد بن عقيل الحضرمي، وكذلك كتاب جواهر التاريخ، ج٢، للشيخ علي الكوراني، وبالتحديد الفصل الحادي عشر تحت عنوان (الذين قتلهم معاوية).

يكون الدافعَ والمحرِّكَ والمسارَ لخطوات المسلم في حياته، وأن ذلك يجب أن يكون الصوابَ والحقَّ لا غير، وأن عليه أن يذعن للصواب ويقبل توجيه مَن يوجهه نحوه لو أن مسيرته انحرفت، فقال عليه السلام، مخاطباً ابن عمر في صورة الاستفسار وحقيقة التعليم «**أسألك بالله يا عبدالله! أنا عندك على خطأ من أمري هذا؟ فإن كنت عندك على خطأ فردني؛ فإني أخضع وأسمع وأطيع**».

وخيراً فعل ابنُ عمر بجوابه حيث أكد بنحوٍ جازمٍ بصواب الإمام عليه السلام في اختياره وفعله وأخلاقية دوافعه وغاياته حيث رد بقوله «**اللهم لا! ولم يكن الله تعالى يجعل ابن بنت رسوله على خطإٍ، وليس مثلك من طهارته وصفوته من الرسول صلى الله عليه وآله على مثل يزيد بن معاوية ـ لعنه الله ـ باسم الخلافة**».

الوقفة السابعة: ضرورة الحذر من بعض الناصحين

في أزمنة الشدة قد تتباين المواقف والمشاريع إلى درجة التصادم، ويحرص كلُّ فريق على تسويق مشروعه موقفه بشتى السبل. وهذا أمرٌ طبيعيٌّ، ولا عيب فيه؛ لأن كلَّ فريقٍ يرى الحقَّ في ما اختاره، غير أن الإنسان إذا ساءت نيته، وفسدت إنسانيته، قد يحرص على تغليب رأيه وموقفه ومشروعه؛ أصاب فيه أو أخطأ، ولا يهمه عندها أن يغلب بالحق أو الباطل، وهذا هو المعيب والمنكر.قال الإمام

علي ﷺ؛ رداً على من اقترح عليه التمييز بين الناس في العطاء: (**أتأمروني أن أطلب النصر بالجور**)[1].

ومن أساليب الباطل؛ التي قد يلجأ إليها مَن فسدت أخلاقه من المبطِلين؛ والمؤمن (**لا يدخل في الباطل**)[2]، إشعارُ الخصم أو الطرف الآخر بأنه ناصحٌ مشفقٌ، ويأخذ بإسداء ما يصب ـ ظاهراً ـ في مصلحة من يتقدم إليه بالنصح للمحافظة على نفس المستشير أو عرضه أو ماله.

والحصيفُ من الناس لا يقف عند حدود ظاهر النصيحة، بل يتجاوزها إلى سبر أغوار شخصية الناصح والمشير، فإن عرفه بالإخلاص أنصت إلى مشورته وتأمل فيها، فإن رآها صواباً أخذها، وإن وجدها خطأً ردها وعمل بما انتهى إليه علمه. وأما إذا عرف المسمِّي نفسه ناصحاً ومشيراً بخلاف ما سمى به نفسه فإن عليه أن يرد نصائحه بل يحذر منها؛ (**ولا تعجلنَّ إلى تصديق ساعٍ! فإن الساعي غاشٌّ وإن تشبَّه بالناصحين**)[3].

ولا يغيب عنا أن ما فعله الشيطان الرجيم مع أبينا آدم ﷺ هو عين ما حذرنا منه؛ حيث تقمص دور الناصح؛ وليس به، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف/

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٦.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.
(٣) نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

٢١]، وقد ظن آدم وحواء (أن أحداً لا يقدم على اليمين بالله تعالى، إلا صادقاً)[١].

وهنا نجد المشيرَ يبدي شفقته، بعد كل ما تقدم، ويقول «**ولكن أخشى أن يضرب وجهك هذا الحسن الجميل بالسيوف، وترى من هذه الأمة ما لا تحب، فارجع معنا إلى المدينة، وإن لم تحب أن تبايع فلا تبايع أبداً، واقعد في منزل**».

فهو ـ أولاً ـ يسعى إلى استدرار عطف الإمام الحسين عليه السلام نحو نفسه، بأن لا يعرِّض وجهه الحسن والجميل للضرب بالسيوف، وكأن لسان حاله يقول: لا يهم أن يتعرض وجه الدين للضرب والتشويه، أما وجهك فلا يجوز تعريضه لمثل ذلك.

وهو ـ ثانياً ـ حريصٌ على نيل رضا الأمة، وكأنه يريد القول ليس المهم رضا الله بقدر ما يجب الحرص على رضا الناس.

غير أن هذا المنطق مرفوضٌ بطبيعة الحال من قِبَل الإمام الحسين عليه السلام، لذلك جابهه بقوله «**هيهات يا ابن عمر!**» مبيِّناً له أن للقوم مشروعاً لا يتم بغير تقديم البيعة والتسليم له، وأن الخيارات أمامهم تنحصر؛ انطلاقاً من مشروعهم

(١) الطبرسي، أبو الفضل، مجمع البيان في تفسير القرآن، ذيل قوله تعالى: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا... وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾، ج٤، ص٢٢٨.

ذاك، في ذلك وأضاف قوله «**إن القوم لا يتركوني إن أصابوني، وإن لم يصيبوني فلا يزالون حتى أبايع وأنا كاره، أو يقتلوني**».

الوقفة الثامنة: حتمية الصدام بين الحق والباطل

يواصل الإمامُ الحسينُ عليه السلام في هذا الحوار الهام شرح ما لا يجوز خفاؤه، خصوصاً حينما يكون لابد من المواجهة.

ومما لا يجب أن يخفى هو أن الصراع بين الحق والباطل قد يتطلب الصدام، وقد يصل إلى حتمية التضحية، ولا يجوز لصاحب المشروع والمنتمي له أن يعلق انتماءه لمبادئه على حال الرخاء. لذلك بيَّن الإمام عليه السلام لابن عمر، وهو العارف حيث خاطبه بسؤال استنكاري؛ فقال «**أما تعلم يا عبدالله! أن من هوان هذه الدنيا على الله تعالى أنه أتي برأس يحيي بن زكريا عليه السلام إلى بغية من بغايا بني إسرائيل والرأس ينطق بالحجة عليهم؟!**»[1].

---

(١) وقد ورد في الأخبار أن ما تسبب في قتله عليه السلام هو واحد من أمرين:
الأول: أن امرأةً بغياً افتتن بها ملك بني إسرائيل، وكان يأتيها فنهاه يحيى ووبخه على ذلك، وكان يحيى عليه السلام مكرماً عند الملك يطيع أمره ويسمع قوله؛ فأضمرت المرأة البغي عداوته، وطلبت من الملك رأس يحيى، وألحت عليه؛ فأمر به فذبح، وأهدي إليها رأسه.
الثاني: أن من طلب رأس يحيى عليه السلام هو ابنة أخي الملك، الذي كان يريد أن يتزوج بها؛ فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك لحرمته؛ فاحتالت تلك البغي بمعونة أمها على الملك؛ الذي وقع تحت تأثير شهوته المحرمة، فاستجاب لطلبهما بقتل=

ولعل الإمام عليه السلام أراد بهذا التذكير أن يرد على منطق الاستخذاء والاستسلام الذي طفح به كلام ابن عمر؛ عبر التأكيد على أن الانتماء للحق لا يخلو من ضريبة يدفعها المنتمون له؛ حتى الأنبياء منهم عليهم السلام، فهذا نبي الله يحيى عليه السلام قُتل في سبيل الحق، وتمادى قتلته حتى أهدوا رأسه الشريف إلى امرأةٍ ساقطةٍ، ومع ذلك وجب على يحيى عليه السلام أن يؤدي واجبه وإن حصل مثل هذا الفعل القبيح.

وألحق الإمام عليه السلام كلامه بالتأكيد على أن الحق غالبٌ وإن تمادى الظالمون في غيهم وبغيهم، وقد تتجلى غلبة الحق بطريقة لا تخطر على بال أحد، وقد يكون أول مَن يفاجأ بانكسار الباطل وغلبة الحق هو المعتدون أنفسهم، كما حصل من رأس يحيى عليه السلام الذي أنطقه الله بالحجة عليهم(١).

=يحيى عليه السلام فذبحه عليه السلام، ووضع رأسه في طست من ذهب وأهداه إليها. انظر: تفسير الميزان، تفسير سورة مريم، قصة يحيى وزكريا.

(١) هذا المضمون من الكرامات التي تسالم أهل التحقيق على إمكانها، بل وقوعها في الجملة.

جاء في الفتوى رقم (٩٠٢٧) الصادرة من اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء:

الكرامة: أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد عبد من عباده الصالحين حيا أو ميتا إكراما له فيدفع به عنه ضراً أو يحقق له نفعاً أو ينصر به حقاً) [فتاوى اللجنة الدائمة ـ المجموعة الأولى، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، الناشر رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء ـ الإدارة العامة للطبع ـ الرياض]. =

= أو هي: أمرٌ خارقٌ للعادة يظهره الله تعالى على يد ولي من أوليائه تكريماً له أو نصرة لدين الله)، وهي (ثابتة بالشرع والمشاهدة؛ فإنكارها مكابرة) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين، ج٤، ص٤١١، فصل قول أهل السنة والجماعة في كرامات الأولياء.

وخصوص هذه الكرامة استفاض نقلها بين الفريقين، ومن ثم فلا يضره ضعف سند هذا الخبر أو ذاك.

فمن الشيعة قال الشيخ المفيد في الإرشاد: ...**وَلَمَّا أَصْبَحَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ زِيَادٍ بَعَثَ بِرَأْسِ الْحُسَيْنِ عليه السلام فَدِيرَ بِهِ فِي سِكَكِ الْكُوفَةِ وَقَبَائِلِهَا. فَرُوِيَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ أَنَّهُ مُرَّ بِهِ عَلَيَّ وَهُوَ عَلَى رُمْحٍ، وَأَنَا فِي غُرْفَةٍ لِي، فَلَمَّا حَاذَانِي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف/ ١٨]؛ فَقَفَّ - واللهِ - شِعْرِي عَلَيَّ، وَنَادَيْتُ رَأْسُكَ - يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ - أَعْجَبُ وَأَعْجَبُ**) الإرشاد للشيخ المفيد، وعنه بحار الأنوار ج٤٥، ص١٢١.

وروى محمد بن سليمان الكوفي عن المنهال، وقال: [حدثنا] أبو أحمد، قال: سمعت محمد بن مهدي يحدث عن عبدالله بن داهر الرازي، عن أبيه، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو قال: رأيت رأس الحسين بن علي على الرمح وهو يتلو هذه الآية ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف/ ١٨] فقال رجل من عرض الناس: رأسك - يا ابن رسول الله - أعجب) [مناقب أمير المؤمنين - محمد بن سليمان الكوفي، ص٢٦٧، الحديث ٧٣٢].

وممن ذكره المناوي في فيض القدير في شرح الجامع الصغير تحت الرقم ٢٨١ في ج١ ص٢٦٤، قال: وأخرج ابن خالويه، عن الأعمش، عن منهال بن عمرو الأسدي، قال: والله أنا رأيت رأس الحسين حين حمل وأنا بدمشق وبين يديه رجل يقرأ سورة الكهف، حتى إذا بلغ قوله سبحانه وتعالى ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، فأنطق الله سبحانه وتعالى الرأس بلسان ذرب؛ فقال أعجب من أصحاب الكهف قتلي وحملي).

وقد أخذ المناويُّ الحديث من ابن عساكر، الذي رواه في ترجمة المنهال بن عمرو برقم (٧٦٨٨)، في ج٦٠، ص٣٧٠.

كما ذكرها؛ عن ابن عساكر، السيوطي في الخصائص الكبرى، باب إخباره صلى الله عليه [وآله] وسلم بقتل الحسين رضي الله عنه، ج٢، ص١٢٥.

وكذلك فعل الصالحي في سبيل الهدى والرشاد، ج١١، ص٧٦، جماع أبواب بعض فضائل آل رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم والوصية بهم ومحبتهم=

=والتحذير من بعضهم وذكر أولاد رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وأولادهم رضي الله تعالى عنهم، الباب الثاني عشر: في بعض ما ورد مختصاً بالحسين رضي الله تعالى عنه.
وقال ابن عساكر في تاريخ دمشق: حدثنا أبو الحسن علي بن المسلم لفظاً، نا عبد العزيز بن أحمد، أنا تمام بن محمد وأبو الليث أسد بن القاسم الحلبي؛ قالا: أنا الفضل بن جعفر بن محمد التميمي المؤذن، نا أبو الحسن محمد بن أحمد العسقلاني بطبرية، نا علي بن هارون الأنصاري، نا محمد بن أحمد المصري، نا صالح، نا معاذ بن أسد الحراني، نا الفضل بن موسى الشيباني، نا الأعمش، نا سلمة بن كهيل؛ قال: رأيت رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما على القنا وهو يقول ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة / ١٣٧].
قال الفضل بن جعفر: فقلت لأبي الحسن العسقلاني: الله! إنك سمعته من علي بن هارون؟! قال: الله! إني سمعته منه. قال تمام وأسد: قلنا للفضل بن جعفر: الله! إنك سمعته من أبي الحسن العسقلاني؟! قال: الله! إني سمعته منه. قال عبد العزيز: قلت لتمام وأسد: الله! إنكما سمعتماه من الفضل بن جعفر؟! قالا: الله! إننا سمعناه منه. قال أبو الحسن علي بن المسلم الفقيه: قلت ـ لعبد العزيز ـ: الله! إنك سمعته من تمام وأسد؟! قال: الله! إني سمعته منهما. قلنا للفقيه أبي الحسن: الله! إنك سمعته من عبد العزيز؟! قال: الله! إني سمعته منه. رواه الميداني، عن الفضل، وقال معاذ بن أسد الخراساني: وهو الصواب) تاريخ دمشق ترجمة سلمة بن كهيل، أبو يحيى، الحضرمي، ثم التنعي، الكوفي، تحت الرقم (٢٦٢٤)، ج٢٢، ص١١٧ ـ ١١٨.
وقد أخرج هذا الحديث؛ كما في برنامج المكتبة الشاملة، محمد عبد الأيوبي في كتابه (المناهل السلسلة في الأحاديث المسلسلة)، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م، برقم (٧٢)، ص١٨٣، وذكر سنده، قائلاً: أرويه عن أحمد بن عبدالله المكي، عن محمد بن محمد السقاف، عن صالح بن إبراهيم بن عبد اللطيف، عن أبيه، عن أبي عبدالله محمد بن محمد بن الطيب، عن أبي طاهر محمد، عن أبيه إبراهيم بن حسن، عن ابن الديبع، عن السخاوي، قال: أخبرتني والله آمنة بنت نصر الله، عن أحمد بن أبي بكر بن العز، عن القاضي سليمان بن حمزة الصالحي، عن جعفر بن علي الهمداني، عن الحافظ محمد بن أحمد الأصبهاني، عن أبي علي الحسن بن أحمد الحداد، عن أبي سعيد إسماعيل أبي علي السماك، عن عبد الوهاب بن جعفر الميداني، عن أبي=

الوقفة التاسعة: صلافة المبطِل يجب أن تواجه بصمود المحِق

واصل الإمام الحسين ﷺ هدايته العلمية وإرشاده الأخلاقي؛ بالتنبيه إلى أن المبطِل قد يبالغ في باطله حتى يفتقد الشعور بوخز الضمير في أدنى مراتبه. وأشار في هذا الصدد، وفي سياق تذكيره لابن عمر بما لا يجب أن ينساه، إلى ما وقع فيه عتاة بني إسرائيل من تمادٍ في الغي وصلافة في النفس وموت للضمير، حتى أنهم؛ أي بني إسرائيل «**كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبياً ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون كلهم كأنهم لم يصنعوا شيئاً**». وهذا منتهى الانحطاط الأخلاقي الذي قد يصل إليه الإنسان إذا حاد عن منهج الله وشرعه ولم يتأدب بآدابه.

=القاسم الفضل بن جعفر بني محمد التيمي، عن أبي الحسن محمد بن أحمد العسقلاني، عن أبي الحسن علي بن هارون الأنصاري، عن محمد بن أحمد المصري، عن صالح بن حكيم أبي شعيب البصري نزيل مصر، عن معاذ بن أسد الخراساني، عن الفضل بن موسى السيناني، عن الأعمش، عن سلمة بن كهيل؛ قال: قال:

رأيت رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما أتى على القنا؛ وهو يقول ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ قال: قلت لسلمة آلله أنت سمعته؟ قال آلله إني سمعته منه بباب الفراديس من دمشق لا مثل لي ولا شبه. قال الفضل: فقلت للأعمش آلله أنت سمعته من سلمة؟ فقال: إني سمعته منه. قال معاذ: فقلت للفضل أنت سمعته من الأعمش؟ فقال: آلله إني سمعته منه، قال السخاوي: وهكذا قال كل واحد من الرواة إلى أن وصل إلينا).

ولما كان لله تعالى سُننٌ لا تختلف ولا تتخلف فلا بد أن تقع العقوبة على المسيء، غير أن توقيت وقوعها يرتبط بسلسلة أمور وأسباب قد تتراخى؛ فيقع فاصلٌ زمنيٌّ قد يطول بين المعصية وعقابها. لذلك، نبَّه الإمام الحسين عليه السلام إلى أن ذلك هو ما حصل في بني إسرائيل «**فلم يعجل الله عليهم**»، ولكنه وبعد أن اكتملت أطراف المعادلة وقع ما وجب أن يقع فـ «**أخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر!**».

ولقد جعل قائدُ النهضة جميعَ ما تقدم تمهيداً للاحتجاج على ابن عمر ليختار ما يكون خيراً له، وليكون الإمام عليه السلام قد أدى ما عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فخاطب ابنَ عمر بقوله «**اتق الله ـ أبا عبد الرحمن ـ ولا تدعنَّ نصرتي، واذكرني في صلاتك**». والحسين عليه السلام يؤكد طبيعة نهضته وأنها فعلٌ ربانيٌّ تؤدي بالأمة إلى الله؛ إن هي عملت بشرعه وتخلت عن ما يسخطه. ومن تخلى عنها فليس من الأتقياء، لذلك أكد عليه السلام على التقوى أولاً، ووجوب النصرة بالفعل ثانياً، والتأييد بالدعاء ثالثاً.

ولم يكتفِ الإمامُ الحسينُ عليه السلام؛ في أدائه لدوره التربوي والإرشادي، بما تقدم بل إنه اختار خطاباً يناسب شخصية ابن عمر لعله يتأثر به، حيث أراد تذكيره بأن إنكار ما يقوم به بنو أمية ومناصرة سبط رسول الله صلى الله عليه وآله ليس بالأمر الذي يليق بمثلك أن يتخلف عنه، ومن باب تحفيزه بأفضل ما يمكن أن يكون مؤثراً فيه خاطبه الحسين عليه السلام بقوله «**فوالذي**

بعث جدي محمداً ﷺ بشيراً ونذيراً لو أن أباك عمر بن الخطاب أدرك زماني لنصرني كنصرته جدي، وأقام من دوني قيامه بين يدي جدي».

الوقفة العاشرة: من لم ينصر الباطل فعليه أن لا ينصر الباطل

ليس الناس سواءً في الاستجابة لنداء الحق، غير أن عدم الاستجابة تتفاوت بين شخص وآخر، فبعضهم يكون عدم استجابته بأسلوب عدواني حيث يأبى إلا المشاركة في العدوان بطريقة مباشرة. وبعضهم الآخر يكتفي بعدم النصرة؛ والذي أشرنا سابقاً أنه شكل من أشكال التخذيل بل هو نصرةٌ للباطل.

ومع ذلك ينبغي للحكيم؛ قدر استطاعته، أن يوسع من دائرة مناصريه، وإن لم يستطع فعلى الأقل أن يسعى في توسعة دائرة هؤلاء السلبيين؛ إن أمكنه ذلك أيضاً.

والخيار الأخير هو ما أراد تنفيذه مع ابن عمر، فلما آيس من مناصرته له تمنى عليه أن لا يساهم في العدوانية المباشرة عليه، فقال له «**يا ابن عمر! فإن كان الخروج معي مما يصعب عليك ويثقل**» ومع ذلك توقع منه الحد الأدنى من النصرة بقوله «**لا تتركن لي الدعاء في دبر كل صلاة**». ولم يطلب منه ذلك لحاجته إلى دعاء مثله، وإنما لإلقاء الحجة عليه من باب أن الصلاة وتوابعها من تعقيبات وأدعية

يُفترض بها أن تجعل مَن يقوم بها قريباً من الله تعالى، ومن كان كذلك لا يمكن إلا أن يكون نابذاً للظلم والظالمين، ويزيد بطبيعة الحال منهم، منحازاً للحق والمحقين، والحسين بالتأكيد منهم.

مع كل هذه الاحترازات والمناشدات من قبل الإمام عليه السلام فإنه كان يعلم أن مخاطَبَه لن يلتزم خط النهضة، وأنه سيختار خط السلطة. لذلك، تمنى عليه أن يؤخر انضمامه واختياره إلى أبعد فترة زمنية ممكنة، بقوله «**واجلس عن القوم، ولا تعجل بالبيعة لهم حتى تعلم إلى ما تؤول الأمور**».

وللأسف فإن الرجل لم يأخذ بوصايا الإمام الحسين عليه السلام هذه، بل إنه حرص على البيعة والحض عليها والتحذير من التراجع عنها، فقد روى البخاري بإسناده عن نافع، قال: «**لما خلع أهلُ المدينة يزيدَ بنَ معاوية، جمع ابنُ عمر، حشمَه وولدَه، فقال: إني سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه [وآله] وسلم يقول: يُنصَب لكل غادرٍ لواءٌ يوم القيامة». وإنا قد بايعنا هذا الرجلَ على بيع الله ورسوله، وإني لا أعلم غدراً أعظمَ من أن يبايع رجلٌ رجلٌ على بيع الله ورسوله ثم يَنصب له القتالَ. وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه، ولا بايع في هذا الأمر، إلا كانت الفيصلَ بيني وبينه**»(١).

---

(١) صحيح البخاري، الحديث (٧١١١)، كتاب الفتن، باب إذا قال عند قوم شيئاً، ثم خرج فقال بخلافه.

ولم يكتفِ بالتحذير بل أكد بيعته بالذهاب إلى عامل يزيد بالمدينة، فقد روى مسلم في صحيحه، عن نافع أنه قال: «**جاء عبدالله بن عمر إلى عبدالله بن مطيع حين كان من أمر الحرة ما كان، زمن يزيد بن معاوية، فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثاً سمعتُ رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يقوله: سمعت رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يقول: من خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعةٌ، مات ميتة جاهلية**»[1].

قلت: كأنه لم يسمع بقولين آخرين عن النبي ﷺ، لا بد أنهما بلغاه؛ فلقد كان هو راوياً لأحدهما:

أولهما: ما رواه ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: **(السمعُ والطاعةُ على المرء المسلم في ما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصيةٍ فلا سمع ولا طاعة)**[2].

---

(١) صحيح مسلم، الحديث (١٨٥١)، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن، وتحذير الدعاة إلى الكفر.
قلتُ: هل فات ابنَ عمر أن الإمام الحسين عليه السلام استشهد ولم يكن في عنقه بيعةٌ ليزيد، أفهل يجرأ ابنُ عمر على القول إن الإمام الحسين مات ميتةً جاهليةً ـ نعوذ بالله من ذلك ـ ؟ أم الواجب المصير إلى القول إن الحسين بن علي عليه السلام كان هو الإمام الشرعي الواجب على الناس أن يبايعوه، وأن يزيد لم يكن إماماً شرعياً لتصح بيعته فضلاً عن أن تجب على أصاغر الناس فضلاً عن أكابرهم ومن جعلهم الله أئمةً لهم وعليهم.

(٢) صحيح البخاري، الحديث (٧١٤٤)، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية.

ثانيهما: روى عبادة بن الصامت، قال: (**بايعنا رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم**)[1].

والحديثان معاً يضعان إطاراً لم يلتزم به يزيد ولا من فرضه على رقاب الناس؛ وهو أبوه، حتى تكون بيعته وبيعة من سبقه بيعةً شرعيةً، وحتى تكون طاعته لازمةً، يسوغ معها التخلف عن الإمام الحسين عليه السلام؛ فضلاً عن التعدي عليه، وهو بقية العترة الطاهرة التي:

١ ـ أوجب الله مودتهم؛ بمقتضى قوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى/ ٢٣].

٢ ـ حرَّم بغضهم؛ بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله؛ حيث يقول: (**مَن أبغضنا ـ أهل البيت ـ فهو منافقٌ**)[2]. وقال صلى الله عليه وآله: (**والذي نفسي بيده! لا يبغضنا رجلٌ إلا أدخله الله النارَ**)[3].

٣ ـ شهد لهم بعدم الافتراق عن القرآن، وجعلهم أماناً

---

(١) صحيح البخاري، الحديث (٧١٩٩)، كتاب الأحكام، باب كيف يباع الناس الإمام. ورواه مسلم في صحيحه باختلاف يسير جداً، بالرقم (١٧٠٩)، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية.

(٢) بن حنبل، أحمد، فضائل الصحابة، فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام، الحديث (١١٢٦)، ج٢، ص٦٦١.

(٣) الهيتمي، نور الدين، موارد الظمآن إلى زوائد بن حبان، الحديث (٢٢٤٦)، باب فضل أهل البيت، ج١، ص٥٥٥.

من الضلال، فقال ﷺ: (إني تاركٌ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي؛ أحدُهما أعظمُ من الآخر: كتابُ اللهِ؛ حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، وعترتي أهلَ بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوضَ. فانظروا كيف تخلفوني فيهما)[1].

فتوريث معاوية الحكمَ لابنه يزيد هو:

أ ـ عدوانٌ على الله تعالى؛ على القول بأنها شأنٌ إلهيٌّ؛ يضعه حيث شاء[2]، وأن الأمر كله لله.

---

(١) سنن الترمذي، الحديث (٣٧٨٨)، أبواب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي (صلى الله عليه [وآله] وسلم)، ج٥، ص٦٦٣.

(٢) روى في السيرة الحلبية أن رجلاً سأل رسولَ الله (صلى الله عليه وآله) لما عرض على قبيلته الإسلامَ: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظفرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟

فأجابه النبي (صلى الله عليه وآله) بقوله: الأمر إلى الله يضعه حيث شاء) [السيرة الحلبية، ج٢، ص١٥٤، ط. دار المعرفة].

وهذا المعنى مستفيض نقله؛ فقد رواه كثيرٌ من المؤرخين للسيرة النبوية الشريفة، فمثلاً:

قال ابن إسحاق: وحدثني الزهري: أنه قال: أتى بنى عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم ـ يقال له: بيحرة بن فراس ـ قال ابن هشام: فراس ابن عبدالله بن سلمة [الخير] بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ـ: والله، لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الامر من بعدك؟ قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء.

قال: فيقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك.

فأبوا عليه). السيرة النبوية لابن هشام، بين سويد بن الصامت الكامل، وبين=



ب ـ عدوانٌ على الناس؛ على القول بأنها شأن الأمة؛ تقرره من خلال الشورى.

وفي كلتا الحالتين فتنصيب يزيد باطل، ومعارضة الحسين عليه السلام مشروعةٌ، ومناصرتُهُ واجبةٌ، والتخلفُ عنه تخلفٌ عن القرآن ووقوعٌ في الضلال.

الوقفة الحادية عشرة: أخلاقية النهضة بصيانتها معلوماتياً

يجب على صاحب كل نهضة أن يصونها ويحفظها بكل ما يستطيع مادياً ومعنوياً، ومن أشكال النصرة زيادة أعداد المنتسبين من جهة، واستيعابهم لأهدافها من جهة ثانية، ودفعهم إلى العمل على تجسيد أهداف النهضة من جهة ثالثة، وتوزيع المهام على الأنصار والمنتسبين بطريقة مناسبة من جهة رابعة.

وهذا ما كان من الإمام الحسين عليه السلام مع ابن عباس؛

=رسول الله، ص٢٨٩.

وانظر: تاريخ الطبري، ذكر الخبر عما كان من أمر نبي الله صلى الله عليه وآله عند ابتداء الله تعالى ذكره إياه بإكرامه بإرسال جبريل عليه السلام إليه بوحيه، ج٢، ص٣٥٠، ط. دار التراث ـ بيروت ١٣٨٧ هـ.

وكذلك تاريخ الإسلام للذهبي، ج١، ص٣٨٦، عرض الرسول (صلى الله عليه [وآله] وسلم) نفسه على القبائل. والسيرة النبوة لابن كثير، فصل الوفود ترفض دعوة الرسول، ص١٥٨.

وغيرها من مصادر.

الذي كان ـ كما قدمنا ـ من مناصري النهضة عموماً، وقد ترجمت هذه النصرة بنحوين:

النحو الأول: الكلمة إبان النهضة وبعدها، كما تؤكده وقائع حياته.

النحو الثاني: المعلومة أثناء النهضة. وهذا ما كلف به الإمام الحسين عليه السلام عبدالله بن عباس؛ فزكاه أولاً بقوله «**إنك ابن عم والدي، ولم تزل تأمر بالخير منذ عرفتك، وكنتَ مع والدي؛ تشير عليه بما فيه الرشاد، وقد كان يستنصحك ويستشيرك فتشير عليه بالصواب**». وفي خطوة ثانية رسم له خطة عمله بقوله «**فامضِ إلى المدينة في حفظ الله وكَلائه، ولا يخفى عليَّ شيءٌ من أخبارك**».

الوقفة الثانية عشرة: ربانية السلوك والاستنصار

عمل صاحبُ النهضة عليه السلام قدر ما استطاع على إعلان رفضه وسخطه للواقع السلطوي الغاشم، واختار أن يكون ذلك في أقدس بقعتين لدى عموم المسلمين؛ وهما:

* المدينة المنورة في المرحلة الأولى
* مكة المكرمة في مرحلة ثانيةٍ.

واختار أن يكون عمله هذا شعبياً؛ فلم يخطط لانقلابٍ عسكريٍّ يُدبَّر له في ليل.

ثم إنه اجتهد ـ كلَّ الجهد ـ في بيان طبيعة النهضة، ودواعيها، وأهدافها، ووسائلها، وأدواتها. فلم يغشَّ أحداً،



بل إنه لم يقبل أن يلتحق به أحد دون أن يعرف مآل النهضة ومصير من يشارك فيها[1].

وقد اعتمد الإمام الحسين عليه السلام أساليبَ متنوعةً في بيان كل ذلك.

منها: ما جاء في آخر هذا الحوار الذي نحن بصدده، حيث قال لابن عباس، بعد أن كلَّفه بالمضي إلى المدينة

---

(١) فقد روى أنه لما عزم على الخروج إلى العراق؛ ولما يزل في مكة، قام خطيباً، فقال:

الحمد لله ما شاء الله، ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على رسوله. خُطَّ الموتُ على ولد آدم مخطَّ القلادة على جِيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخِير لي مصرعٌ أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطعها عسلانُ الفلوات بين النواويس وكربلاء؛ فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربةً سغباً. لا محيصَ عن يومٍ خُط بالقلم. رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجر الصابرين. لن تشذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله لحمتُهُ، وهي مجموعةٌ له في حظيرة القدس، تقر بهم عينه، وينجز بهم وعده. مَن كان باذلاً فينا مهجته، وموَطِّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا؛ فإنني راحلٌ مصبحاً إن شاء الله تعالى) [اللهوف في قتلى الطفوف، ص٦١].

وفي مساء يوم التاسع ليلة العاشر من محرم قام خطيباً؛ فقال:

أُثْنِي عَلَى اللهِ أَحْسَنَ الثَّنَاءِ، وَأَحْمَدُهُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْمَدُكَ عَلَى أَنْ أَكْرَمْتَنَا بِالنُّبُوَّةِ، وَعَلَّمْتَنَا الْقُرْآنَ، وَفَقَّهْتَنَا فِي الدِّينِ، وَجَعَلْتَ لَنَا أَسْمَاعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً؛ فَاجْعَلْنَا مِنَ الشَّاكِرِينَ. أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَصْحَاباً أَوْفَى، وَلَا خَيْراً، مِنْ أَصْحَابِي، وَلَا أَهْلَ بَيْتٍ أَبَرَّ وَأَوْصَلَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي؛ فَجَزَاكُمُ اللهُ عَنِّي خَيْراً.

أَلَا وَإِنِّي لَأَظُنُّ يَوْماً لَنَا مِنْ هَؤُلَاءِ، أَلَا وَإِنِّي قَدْ أَذِنْتُ لَكُمْ؛ فَانْطَلِقُوا جَمِيعاً؛ فِي حِلٍّ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ حَرَجٌ مِنِّي وَلَا ذِمَامٌ. هَذَا اللَّيْلُ قَدْ غَشِيَكُمْ فَاتَّخِذُوهُ جَمَلاً) [بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٩٣].

فهو ـ إذن ـ يعلم بأنه مقتولٌ لا محالة، وأن من سينحاز إليه مقاتلاً مقتولٌ أيضاً، وأراد عليه السلام أن يكون المنحازون إليه على علم بمصيرهم المحتوم.

وتزويده بما يجري فيها «**فإني مستوطنٌ هذا الحرم، ومقيمٌ فيه أبداً ما رأيت أهله يحبوني، وينصروني، فإذا هم خذلوني استبدلتُ بهم غيرهم، واستعصمتُ بالكلمة التي قالها إبراهيم الخليل** عليه السلام **يوم أُلقِي في النار** ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ **فكانت النار عليه برداً وسلاماً**».

ولقد أشار في هذا المقطع القصير إلى أمور:

الأول: أنه لن يمكث في مكة المكرمة إذا تبين له أن أهلها لا يحملون بين أضلاعهم مودة حقيقةً له[1]، وأنهم بالتالي يكرهون منه المكثَ بين ظهرانيهم، وعبروا عن ذلك بعدم مناصرته.

الثاني: أنه سيستبدل بهم غيرهم.

الثالث: أن عمله النهضوي هذا ربانيٌّ بكل ما تعنيه الكلمة، ومن ثم فإنه لن يتراجع عما تمليه عليه لوازم هذه الربانية من قبيل أن يتراجع عن النهضة التي وجب عليه القيام بها.



(١) وهذا ما روي عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام، الذي قال: **ما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يحبنا**) [الغارات، ج٢، ص٣٩٣].

خاتمة
الواقع والوقائع

لا يكتمل تصوير النهضة الحسينية في مناقبيتها الأخلاقية إلا بالوقوف على ما جرى من أحداث ووقائع تكشف واقعاً سيئاً أريد فرضه على الأمة، ثم أريد تجميله خلافاً لما كان عليه من قبحٍ.

ولن نسهب في تبيان ما جرى قبل الواقعة وفيها وبعدها، فلم يعقد هذا البحث لذلك، بل سنكتفي بالإيجاز؛ وهو يفي بالغرض، ونقول:

عقد الشيخ الصدوق في كتابه (الأمالي) مجلسين حملا الرقمين (٣٠، ٣١)، روى فيهما مجريات واقعة الطف وما سبقها وما تلاها على النحو التالي:

قال رحمه الله: حدثنا محمد بن عمر البغدادي الحافظ رحمه الله، قال: حدثنا أبو سعيد الحسن بن عثمان بن زياد التستري من كتابه، قال: حدثنا إبراهيم بن عبيد الله بن موسى بن يونس بن أبي إسحاق السبيعي قاضي بلخ، قال: حدثتني مريسة بنت موسى بن يونس بن أبي إسحاق وكانت

عمتي، قالت: حدثتني صفية بنت يونس بن أبي إسحاق الهمدانية وكانت عمتي، قالت: حدثتني بهجة بنت الحارث بن عبدالله التغلبي، عن خالها عبدالله بن منصور وكان رضيعاً لبعض ولد زيد بن علي عليه السلام، قال: سألت جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام، فقلت: حدثني عن مقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال: حدثني أبي، عن أبيه، قال: لما حضرت معاوية الوفاة دعا ابنه يزيد (لعنه الله) فأجلسه بين يديه، فقال له: يا بني، إني قد ذللتُ لك الرقاب الصعاب، ووطَّدت لك البلادَ، وجعلت الملكَ وما فيه لك طعمةً[1]. وإني أخشى عليك من ثلاثة نفر يخالفون عليك بجهدهم، وهم: عبدالله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، والحسين بن علي.

* فأما عبدالله بن عمر فهو معك؛ فالزمه ولا تدَعه.

---

(١) وهذا المضمون هو ما رواه وأخرجه كثيرون، ومنهم ابن حجر؛ الذي قال:
وأخرج الطبراني؛ من طريق محمد بن سعيد بن رمانة، أن معاوية لما حضره الموت قال ليزيد: قد وطأت لك البلاد، ومهدت لك الناس. ولست أخاف عليك إلا أهل الحجاز؛ فإن رابك منهم ريب فوجه إليهم مسلم بن عقبة؛ فإني قد جربته وعرفت نصيحته) [فتح الباري لابن حجر، ج١٣، ص٧١؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ج٥٨، ص١١٣].
وقال ابن حجر ـ أيضاً ـ :
وأخرج أبو بكر بن أبي خيثمة بسند صحيح إلى جويرية بن أسماء سمعت أشياخ أهل المدينة يتحدثون أن معاوية لما احتضر دعا يزيد، فقال له: إن لك من أهل المدينة يوماً، فإن فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة؛ فإني عرفت نصيحته) [فتح الباري لابن حجر، ج١٣، ص٧٠].

* وأما عبدالله بن الزبير فقطعه إن ظفرت به إرباً إرباً، فإنه يجثو لك كما يجثو الأسد لفريسته، ويواربك موارَبةَ[1] الثعلب للكلب.

* وأما الحسين فقد عرفتَ حظَّه من رسول الله، وهو من لحم رسول الله ودمه، وقد علمتُ ـ لا محالة ـ أن أهل العراق سيخرجونه إليهم ثم يخذلونه ويضيعونه، فإن ظفرت به فاعرف حقه ومنزلته من رسول الله، ولا تؤاخذه بفعله، ومع ذلك فإن لنا به خلطةً[2] ورحماً، وإياك أن تناله بسوءٍ، أو يرى منك مكروهاً».

قال: فلما هلك معاوية، وتولى الامر بعده يزيد (لعنه الله)، بعث عامله على مدينة رسول الله ﷺ، وهو عمه عتبة بن أبي سفيان، فقدم المدينة وعليها مروان بن الحكم، وكان عاملَ معاوية، فأقامه عتبةُ من مكانه وجلس فيه، لينفذ فيه أمرَ يزيد، فهرب مروانُ فلم يقدر عليه، وبعث عتبةُ إلى الحسين بن علي عليه السلام، فقال: إن أمير المؤمنين أمرك أن تبايع له. فقال الحسين عليه السلام: يا عتبة، قد علمت أنا أهل بيت الكرامة، ومعدن الرسالة، وأعلام الحق الذي أودعه الله عز وجل قلوبنا، وأنطق به ألسنتنا، فنطقت بإذن الله عز وجل، ولقد سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: أن الخلافةَ

(١) واربه: داهاه وخاتله وخادعه.

(٢) في نسخة: خلة.



محرَّمةٌ على ولد أبي سفيان)، وكيف أبايع أهلَ بيت قد قال فيهم رسول الله ﷺ هذا؟!

فلما سمع عتبةُ ذلك دعا الكاتب وكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، إلى عبدالله يزيد أمير المؤمنين، من عتبة بن أبي سفيان. أما بعد، فإن الحسين بن علي ليس يرى لك خلافةً ولا بيعةً، فرأيك في أمره والسلام».

فلما ورد الكتاب على يزيد (لعنه الله) كتب الجواب إلى عتبة: «أما بعد، فإذا أتاك كتابي هذا فعجل علي بجوابه وبيِّن لي في كتابك كلَّ مَن في طاعتي، أو خرج عنها، وليكن مع الجواب رأس الحسين بن علي».

فبلغ ذلك الحسينَ عليه السلام، فهمَّ بالخروج من أرض الحجاز إلى أرض العراق، فلما أقبل الليل راح إلى مسجد النبي ﷺ ليودع القبر، فلما وصل إلى القبر سطع له نورٌ من القبر فعاد إلى موضعه، فلما كانت الليلة الثانية راح ليودع القبر، فقام يصلي فأطال، فنعس وهو ساجد، فجاءه النبيُّ ﷺ وهو في منامه، فأخذ الحسينُ عليه السلام وضمَّه إلى صدره، وجعل يقبِّل بين عينيه، ويقول: بأبي أنت، كأني أراك مرملاً بدمك بين عصابةٍ من هذه الأمة، يرجون شفاعتي، ما لهم عند الله من خلاق. يا بني! إنك قادمٌ على أبيك وأمك وأخيك، وهم مشتاقون إليك، وإن لك في الجنة درجاتٍ لا تنالها إلا بالشهادة».

فانتبه الحسينُ عليه السلام من نومه باكياً، فأتى أهلَ بيته، فأخبرهم بالرؤيا وودَّعهم، وحمل أخواته على المحامل وابنته وابن أخيه القاسم ابن الحسن بن علي عليهما السلام، ثم سار في أحد وعشرين رجلاً من أصحابه وأهل بيته، منهم أبو بكر بن علي، ومحمد بن علي، وعثمان بن علي، والعباس بن علي، وعبد الله بن مسلم بن عقيل، وعلي بن الحسين الأكبر، وعلي بن الحسين الأصغر.

وسمع عبدُ الله بن عمر بخروجه، فقدَّم راحلتَه، وخرج خلفه مسرعاً، فأدركه في بعض المنازل، فقال: أين تريد يا بن رسول الله؟ قال: العراق. قال: مهلاً! ارجع إلى حرم جدك. فأبى الحسين عليه السلام عليه، فلما رأى ابن عمر إباءه قال: يا أبا عبدالله، اكشف لي عن الموضع الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقبله منك. فكشف الحسين عليه السلام عن سرته، فقبلها ابن عمر ثلاثا وبكى، وقال: أستودعك الله يا أبا عبدالله، فإنك مقتولٌ في وجهك هذا)[1].

---

(١) أقول: ليس هذا تحليلاً ولا وتوقعاً من ابن عمر، وإنما هو حقيقةٌ نبوية كان قد أخبر عنها رسولُ الله صلى الله عليه وآله، وعلم بها الصحابة، حتى قال ابن عباس (ره): **ما كنا نشك؛ وأهل البيت متوافرون، أن الحسين بن علي يُقتل بالطف)** [المستدرك على الصحيحين للحاكم، باب مناقب أبي عبدالله الحسين عليه السلام، الحديث ٤٨٢٦].

وروى ابن حبان بسنده عن أنس، قال: **استأذن ملك القطر ربه أن يزور النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم، فأذن له، فكان في يوم أم سلمة، فقال النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم: «احفظي علينا الباب، لا يدخل علينا أحد» فبينا هي على الباب إذ جاء الحسين بن علي، فظفر، فاقتحم، ففتح الباب فدخل، فجعل=**

=يتوثب على ظهر النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم، وجعل النبي يتلثمه ويقبله، فقال له الملك: أتحبه؟

قال: «نعم».

قال: أما إن أمتك ستقتله، إن شئت أريتك المكان الذي يقتل فيه؟

قال: «نعم» فقبض قبضة من المكان الذي يقتل فيه، فأراه إياه فجاءه بسهلة أو تراب أحمر، فأخذته أم سلمة، فجعلته في ثوبها.

قال ثابت: كنا نقول إنها كربلاء) [الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، الحديث (٦٧٤٢)، ج١٥، ص١٤٢ ـ ١٤٣].

وعلق محقق الكتاب شعيب الأرنؤوط على الحديث بقوله:

حديث حسن، إسناده ضعيف، عمارة بن زادان مختلف فيه ضعفه الدارقطني وابن عمار الموصلي والساجي، وقال الأثرم عن أحمد: يروي عن ثابت عن أنس مناكير، وقال البخاري: ربما يضطرب في حديثه، وقال الآجري عن أبي داود: ليس بذاك، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به ليس بالمتين، ووثقه المؤلف والعجلي ويعقوب بن سفيان ورواية عن أحمد، وقال ابن معين: صالح، وقال أبو زرعة: لا بأس به، وقال ابن عدي: هو عندي لا بأس به ممن يكتب حديثه، وباقي رجال السند رجال الصحيح.

وأخرجه أبو يعلى «٣٤٠٢»، والطبراني «٢٨١٣» من طرق عن شيبان بن فروخ، بهذا الإسناد.

وأخرجه أحمد ٣/ ٢٤٢ و٢٦٥، والبزار «٢٦٤٢»، والطبراني «٢٨١٣»، والبيهقي في «الدلائل» ٦/ ٤٦٩، وكذا أبو نعيم «٤٩٢» من طرق عن عمارة بن زادان، به.

وأورده الهيثمي في «المجمع» ٩/ ١٨٧ ونسبه إلى أحمد وأبي يعلى والبزار والطبراني وقال: عمارة بن زادان وثقه جماعة وفيه ضعف، وبقية رجال أبي يعلى رجال الصحيح.

وفي الباب عن علي عند أحمد ١/ ٨٥، وفي سنده نجي لم يوثقه غير المؤلف.

وعن أم سلمة عند ابن أبي شيبة ١٥/ ٩٧ ـ ٩٨، والطبراني «٢٨١٧» و«٢٨١٩» و«٢٨٢٠» و «٢٨٢١»، وقال الهيثمي: ٩/ ١٨٩: ورجال أحد أسانيد الطبراني ثقات.

وعن أبي أمامة عند الطبراني في «الكبير» «٨٠٩٦» وحسن إسنادَهُ الذهبيُّ في=

فسار الحسين عليه السلام وأصحابه، فلما نزلوا الثعلبية[1] ورد عليه رجل يقال له: بشر بن غالب، فقال: يا بن رسول الله، أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء/ ٧١]. قال: إمامٌ دعا إلى هدى فأجابوه إليه، وإمامٌ دعا إلى ضلالةٍ فأجابوه إليها، هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار، وهو قوله عز وجل: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى/ ٧].

ثم سار حتى نزل العذيب[2]، فقال فيها قائلةَ الظهيرة[3]، ثم انتبه من نومه باكياً، فقال له ابنه: ما يبكيك يا أبه؟ فقال: يا بني! إنها ساعة لا تكذب الرؤيا فيها، وإنه

=«السير» ٣/ ٢٨٩، وقال الهيثمي ٩/ ١٨٩: ورجاله موثقون، وفي بعضهم ضعف.

وعن عائشة أو أم سلمة عند أحمد ٦/ ٢٩٤، ورجاله ثقات رجال الشيخين.

وعن أم الفضل بنت الحارث، عند الحاكم ٣/ ١٧٦ ـ ١٧٧ وفي سنده انقطاع وضعف.

وعن أبي الطفيل عند الطبراني، وحسَّن إسناده الهيثمي ٩/ ١٩٠) انتهى.

أقول: فالمضمون ثابت بالاستفاضة، فلم يكن الإمام الحسين عليه السلام غافلاً عن كون رحلته هذه استشهادية، كما أن كثيرين ممن كانوا قريبين من دائرة الوحي؛ مخلصين وغير مخلصين، كان يعلم بذلك.

ويترتب على هذه المعلومة الكثير من النتائج لسنا بصدد الوقوف عندها في هذا البحث.

(١) من منازل طريق مكة.

(٢) ماء عن يمين القادسية، بينه وبين القادسية أربعة أميال.

(٣) أي نام القيلولة.



عرض لي في منامي عارضٌ؛ فقال: تسرعون السيرَ، والمنايا تسير بكم إلى الجنة.

ثم سار حتى نزل الرهيمة[1]، فورد عليه رجل من أهل الكوفة، يكنى أبا هرم، فقال: يا بن النبي! ما الذي أخرجك من المدينة؟ فقال: ويحك يا أبا هرم، شتموا عرضي فصبرتُ، وطلبوا مالي فصبرتُ، وطلبوا دمي فهربتُ، وأيم الله ليقتلُنِّي، ثم ليلبسنهم الله ذلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً، وليُسلَّطَن عليهم مَن يذلهم.

قال: وبلغ عبيدَ الله بن زياد (لعنه الله) الخبرُ، وأن الحسين عليه السلام قد نزل الرهيمةَ، فأسرى إليه الحر بن يزيد في ألف فارس، قال الحر: فلما خرجت من منزلي متوجهاً نحو الحسين عليه السلام نوديت ثلاثاً: يا حرُّ! أبشر بالجنة، فالتفت فلم أر أحداً! فقلت: ثكلت الحرَّ أمُّهُ، يخرج إلى قتال ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ويُبشَّر بالجنة! فرهقه[2] عند صلاة الظهر، فأمر الحسينُ عليه السلام ابنَهُ، فأذَّن وأقام، وقام الحسينُ عليه السلام فصلى بالفريقين جميعاً، فلما سلم وثب الحرُّ بنُ يزيد فقال: السلام عليك يا بن رسول الله ورحمة الله

---

(١) قال الحموي: بلفظ التصغير، ويجوز أن يكون تصغير رهمة، وهي المطرة الضعيفة الدائمة. والرّهام من الطير كلّ شيء لا يصطاد: وهو ضيعة قرب الكوفة، قال السكوني: هي عين بعد خفيّة إذا أردت الشام من الكوفة، بينها وبين خفيّة ثلاثة أميال، وبعدها القطيّقة مغرباً [معجم البلدان، ج٣، ص١٠٩، مادة (الرهيمة)].

(٢) أي لحقه ودنا منه.

وبركاته، فقال الحسينُ عليه السلام: وعليك السلام، مَن أنت يا عبدالله؟ فقال: أنا الحر بن يزيد. فقال: يا حرُّ، أعلينا أم لنا؟ فقال الحر: والله يا بن رسول الله، لقد بُعثتُ لقتالك، وأعوذ بالله أن أحشر من قبري وناصيتي مشدودة إلي[1]، ويدي مغلولةٌ إلى عنقي، وأكب على حر وجهي[2] في النار. يا بن رسول الله، أين تذهب؟ ارجع إلى حرم جدك، فإنك مقتول، فقال الحسين عليه السلام:

سأمضي فما بالموت عار على الفتى
إذا ما نوى حقا وجاهد مسلما
وواسى الرجال الصالحين بنفسه
وفارق مثبورا وخالف مجرما
فإن مت لم أندم وإن عشت لم ألم
كفى بك ذلا أن تموت وترغما

ثم سار الحسين عليه السلام حتى نزل القطقطانة[3]، فنظر إلى فسطاطٍ مضروبٍ، فقال: لمن هذا الفسطاط؟ فقيل: لعبيد الله بن الحر الجعفي[4] فأرسل إليه الحسينُ عليه السلام فقال: أيها الرجل، إنك مذنبٌ خاطئٌ، وإن الله عز وجل آخذُك بما أنت صانعٌ إن لم تتب إلى الله تبارك وتعالى في ساعتك

---

(١) في نسخة: إلى رجلي.
(٢) الحر من الوجه: ما بدا من الوجنة.
(٣) القطقطانة: موضع قرب الكوفة.
(٤) في نسخة: عبدالله بن الحر الحنفي.

هذه، فتنصرني ويكون جدي شفيعَك بين يدي الله تبارك وتعالى. فقال: يا بن رسول الله! والله لو نصرتك لكنت أولَ مقتولٍ بين يديك، ولكن هذا فرسي خذه إليك، فوالله ما ركبته قط وأنا أروم شيئاً إلا بلغتُهُ، ولا أرادني أحدٌ إلا نجوتُ عليه، فدونك فخذه. فأعرض عنه الحسينُ عليه السلام بوجهه، ثم قال: لا حاجة لنا فيك ولا في فرسك، وما كنت متخذَ المضلين عضداً، ولكن فُرَّ، فلا لنا ولا علينا، فإنه مَن سمع واعيتنا ـ أهل البيت ـ ثم لم يُجبنا كبَّه الله على وجهه في نار جهنم. ثم سار حتى نزل كربلاء، فقال: أي موضع هذا؟ فقيل: هذا كربلاء يا بن رسول الله. فقال: هذا والله يوم كربٍ وبلاءٍ، وهذا الموضع الذي يُهراق فيه دماؤنا، ويباح فيه حريمنا.

فأقبل عبيد الله بن زياد بعسكره حتى عسكر بالنخيلة، وبعث إلى الحسين عليه السلام رجلاً يقال له عمر بن سعد[1] قائدة في أربعة آلاف فارس، وأقبل عبدالله بن الحصين التميمي في ألف فارس، يتبعه شبث بن ربعي في ألف فارس، ومحمد بن الأشعث بن قيس الكندي أيضاً في ألف فارس. وكتب لعمر بن سعد على الناس، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوه.

فبلغ عبيد الله بن زياد أن عمر بن سعد يسامر[2]



(١) يسميه بعض المؤرخين (عمرو).

(٢) في نسخة: يسار.

الحسينَ عليه السلام ويحدثه ويكره قتاله، فوجه إليه شمر بن ذي الجوشن في أربعة آلاف فارس، وكتب إلى عمر ابن سعد: إذا أتاك كتابي هذا، فلا تمهلنَّ الحسينَ بنَ علي، وخذ بكظمه، وحُل بين الماء وبينه، كما حيل بين عثمان وبين الماء يوم الدار.

فلما وصل الكتاب إلى عمر بن سعد (لعنه الله)، أمر مناديه فنادى: إنا قد أجَّلنا حسيناً وأصحابه يومَهم وليلتَهم.

فشقَّ ذلك على الحسين عليه السلام وعلى أصحابه، فقام الحسين عليه السلام في أصحابه خطيباً، فقال: اللهم إني لا أعرف أهلَ بيتٍ أبرَّ ولا أزكى ولا أطهرَ من أهل بيتي، ولا أصحاباً هم خيرٌ من أصحابي. وقد نزل بي ما قد ترون، وأنتم في حِلٍّ من بيعتي، ليست لي في أعناقكم بيعةٌ، ولا لي عليكم ذمةٌ، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وتفرقوا في سواده، فإن القوم إنما يطلبونني، ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب غيري.

فقام إليه عبدالله بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب، فقال: يا بن رسول الله، ماذا يقول لنا الناس إن نحن خذلنا شيخنا وكبيرنا وسيدنا وابن سيد الأعمام، وابن نبينا سيد الأنبياء، لم نضرب معه بسيف، ولم نقاتل معه برمح! لا والله أو نرد موردك، ونجعل أنفسنا دون نفسك، ودماءنا دون دمك، فإذا نحن فعلنا ذلك فقد قضينا ما علينا وخرجنا مما لزمنا.

وقام إليه رجل يقال له زهير بن القين البجلي، فقال: يا بن رسول الله، ووددت أني قتلت ثم نشرت، ثم قتلت ثم نشرت، ثم قتلت ثم نشرت فيك وفي الذين معك مائة قتلة، وإن الله دفع بي عنكم أهل البيت. فقال له ولأصحابه: جزيتم خيراً.

ثم إن الحسين عليه السلام أمر بحفيرةٍ؛ فحُفِرت حول عسكره شبه الخندق، وأمر فحُشِيت حطباً، وأرسل علياً ابنه عليه السلام في ثلاثين فارساً وعشرين راجلاً ليستقوا الماء، وهم على وجلٍ شديدٍ، وأنشأ الحسينُ عليه السلام يقول:

يا دهر أف لك من خليل كم لك في الاشراق والأصيل
من طالب وصاحب قتيل والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الامر إلى الجليل وكل حي سالك سبيلي

ثم قال لأصحابه: قوموا فاشربوا من الماء يكن آخر زادكم، وتوضؤوا واغتسلوا، واغسلوا ثيابكم لتكون أكفانكم.

ثم صلى بهم الفجر وعبَّأهم تعبئة الحرب، وأمر بحفيرته التي حول عسكره فأضرمت بالنار، ليقاتل القومَ من وجهٍ واحدٍ. وأقبل رجل من عسكر عمر بن سعد على فرس له، يقال له: ابن أبي جويرية المزني، فلما نظر إلى النار تتقد صفق بيده، ونادى: يا حسينُ وأصحابَ حسينٍ، أبشروا بالنار، فقد تعجلتموها في الدنيا!

فقال الحسين عليه السلام: من الرجل؟ فقيل: ابن أبي جويرية المزني.

فقال الحسين عليه السلام: اللهم أذقه عذاب النار في الدنيا. فنفر به فرسه وألقاه في تلك النار فاحترق.

ثم برز من عسكر عمر بن سعد رجل آخر، يقال له: تميم بن حصين الفزاري، فنادى: يا حسين ويا أصحاب حسين، أما ترون إلى ماء الفرات يلوح كأنه بطون الحيات؟ والله لا ذقتم منه قطرة حتى تذوقوا الموت جرعاً[1].

فقال الحسين عليه السلام: من الرجل؟ فقيل: تميم بن حصين.

فقال الحسين عليه السلام: هذا وأبوه من أهل النار، اللهم اقتل هذا عطشاً في هذا اليوم. قال: فخنقه العطشُ حتى سقط عن فرسه، فوطأته الخيلُ بسنابكها فمات.

ثم أقبل رجل آخر من عسكر عمر بن سعد، يقال له محمد بن الأشعث به قيس الكندي، فقال: يا حسين بن فاطمة، أية حرمةٍ لك من رسول الله ليست لغيرك؟

فتلا الحسين عليه السلام هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ الآية[2]، ثم قال: والله إن محمداً لَمِن آل إبراهيم، وإن العترة الهادية لمن آل محمد. من الرجل؟ فقيل: محمد بن

(١) جزعاً.

(٢) آل عمران: ٣٣، ٣٤.

الأشعث بن قيس الكندي، فرفع الحسين عليه السلام رأسه إلى السماء، فقال: اللهم أر محمدَ بنَ الأشعث ذلاً في هذا اليوم، لا تعزه بعد هذا اليوم أبداً. فعرض له عارضٌ فخرج من العسكر يتبرز، فسلط الله عليه عقرباً فلدغته، فمات بادي العورة[1].

فبلغ العطشُ من الحسين عليه السلام وأصحابه، فدخل عليه رجل من شيعته يقال له: برير بن خضير[2] الهمداني ـ قال إبراهيم بن عبدالله راوي الحديث: هو خال أبي إسحاق الهمداني ـ فقال: يا بن رسول الله، أتأذن لي فاخرج إليهم، فأكلمهم. فأذن له فخرج إليهم، فقال: يا معشر الناس، إن الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وهذا ماء الفرات تقع فيه خنازير السواد وكلابها، وقد حيل بينه وبين ابنه.

فقالوا: يا برير[3]، قد أكثرت الكلام فاكفف، فوالله ليعطش الحسين كما عطش من كان قبله. فقال الحسين عليه السلام: اقعد يا برير[4].

---

(١) **أقول**: إن كان الراوي دقيقاً في النقل؛ ولم يختلط عليه الأمرُ؛ فلا بد أن أشخاصاً عديدين يحملون اسم محمد ابن الأشعث بن قيس الكندي؛ وهذا يحصل كثيراً في الأسر والعشائر. فهناك محمد بن الأشعث الكندي الذي قاد انتفاضة زمن الحجاج، وهي انتفاضة حصلت بعد واقعة كربلاء بسنين كثيرة.

(٢) في نسخة: يزيد بن الحصين.

(٣) في نسخة: يزيد.

(٤) في نسخة: يزيد.

ثم وثب الحسينُ عليه السلام متوكئاً على سيفه، فنادى بأعلى صوته، فقال: أنشدكم الله، هل تعرفوني؟ قالوا: نعم، أنت ابن رسول الله وسبطه.

قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أن جدي رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أن أمي فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله؟

قالوا: اللهم نعم.

قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أن أبي علي بن أبي طالب عليه السلام؟!

قالوا: اللهم نعم.

قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أن جدتي خديجة بنت خويلد، أول نساء هذه الأمة إسلاماً؟

قالوا: اللهم نعم.

قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أن سيد الشهداء حمزة عم أبي؟

قالوا: اللهم نعم.

قال: فأنشدكم الله هل تعلمون أن جعفراً الطيار في الجنة عمي؟

قالوا: اللهم نعم.

قال: فأنشدكم الله، هل تعلمون أن هذا سيف رسول الله ﷺ، وأنا متقلده؟

قالوا: اللهم نعم.

قال: فأنشدكم الله، هل تعلمون أن هذه عمامة رسول الله ﷺ أنا لابسها؟

قالوا: اللهم نعم.

قال: فأنشدكم الله، هل تعلمون أن علياً كان أولهم إسلاماً، وأعلمهم علماً، وأعظمهم حلماً، وأنه ولي كل مؤمن ومؤمنة؟

قالوا: اللهم نعم.

قال: فبم تستحلون دمي، وأبي الذائد عن الحوض غداً، يذود عنه رجالاً كما يذاد البعير الصادي[1] عن الماء، ولواء الحمد في يدي جدي يوم القيامة؟

قالوا: قد علمنا ذلك كله، ونحن غير تاركيك حتى تذوق الموت عطشاً.

فأخذ الحسين عليه السلام بطرف لحيته، وهو يومئذ ابن سبع وخمسين سنة، ثم قال: اشتد غضب الله على اليهود حين قالوا: عزير بن الله، واشتد غضب الله على النصارى حين قالوا: المسيح بن الله، واشتد غضب الله على المجوس حين عبدوا النار من دون الله، واشتد غضب الله على قوم

---

(١) العطشان.

قتلوا نبيهم، واشتد غضب الله على هذه العصابة الذين يريدون قتل ابن نبيهم.

قال: فضرب الحر بن يزيد فرسه، وجاز عسكر عمر بن سعد (لعنه الله) إلى عسكر الحسين عليه السلام، واضعاً يده على رأسه، وهو يقول: اللهم إليك أنيب فتب علي، فقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد نبيك. يا بن رسول الله، هل لي من توبة؟

قال: نعم تاب الله عليك.

قال: يا بن رسول الله، أتأذن لي فأقاتل عنك؟

فأذن له، فبرز وهو يقول:

أضرب في أعناقكم بالسيف　　عن خير من حل بلاد الخيف

فقتل منهم ثمانية عشر رجلاً، ثم قتل، فأتاه الحسين عليه السلام ودمه يشخب، فقال: بخ بخ يا حر، أنت حر كما سميت في الدنيا والآخرة. ثم أنشأ الحسن عليه السلام يقول:

لنعم الحر حر بني رياح　　ونعم الحر مختلف الرماح[1]

ونعم الحر إذ نادى حسيناً　　فجاد بنفسه عند الصباح

ثم برز من بعده زهير بن القين البجلي، وهو يقول مخاطبا للحسين عليه السلام:

اليوم نلقى جدك النبيا　　وحسنا والمرتضى عليا

(١) منصوب على الظرفية، أي عند مختلف الرماح. وفي مقتل أبي مخنف: ١٢٤: صبور عند مشتبك الرماح.



فقتل منهم تسعة عشر رجلاً، ثم صرع وهو يقول:

أنا زهير وأنا ابن القين أذبكم بالسيف عن حسين

ثم برز من بعده حبيب بن مظهر[1] الأسدي (رضوان الله عليه)، وهو يقول:

أنا حبيب وأبي مظهر لنحن أزكى منكم وأطهر
ننصر خير الناس حين يذكر

فقتل منهم أحدا وثلاثين رجلا ثم قتل (رضوان الله تعالى عليه).

ثم برز من بعده عبدالله بن أبي عروة الغفاري وهو يقول:

قد علمت حقاً بنو غفار أني أذب في طلاب الثار
بالمشرفي[2] والقنا[3] الخطار

فقتل منهم عشرين رجلا ثم قتل رحمه الله.

ثم برز من بعده برير بن خضير الهمداني، وكان أقرأ أهل زمانه وهو يقول:

أنا برير وأبي خضير لا خير فيمن ليس فيه خير

---

(١) في نسخة: مظاهر، وفي أخرى: مطهر، وضبطه العلامة في الخلاصة: ٦١: مظهر، وكذا ابن حجر في الإصابة ١: ١٩٤٩/٣٧٣، أما الشيخ الطوسي فقد ضبطه في الرجال: ١/٧٢: مظاهر، وفي الكامل في التاريخ في عدة مواضع: مظهر.

(٢) المشارف: قرى من أرض اليمن، وقيل: من أرض العرب تدنو من الريف، والسيوف المشرفية منسوبة إليها.

(٣) القنا: جمع قناة، وهي الرمح، ورمح خطار: ذو اهتزاز.

فقتل منهم ثلاثين رجلا ثم قتل (رضوان الله عليه).

ثم برز من بعده مالك بن أنس الكاهلي وهو يقول:

قد علمت كاهلها ودودان والخندفيون وقيس عيلان
بأن قومي قصم[1] الأقران يا قوم كونوا كأسود الجان
آل علي شيعة الرحمن وآل حرب شيعة الشيطان

فقتل منهم ثمانية عشر رجلا ثم قتل (رضوان الله عليه).

وبرز من بعده زياد بن مهاصر[2] الكندي، فحمل عليهم، وأنشأ يقول:

أنا زياد وأبي مهاصر أشجع من ليث العرين الخادر
يا رب إني للحسين ناصر ولابن سعد تارك مهاجر

فقتل منهم تسعة ثم قتل (رضوان الله عليه).

وبرز من بعده وهب بن وهب، وكان نصرانيا أسلم على يدي الحسين عليه السلام هو وأمه، فاتبعوه إلى كربلاء، فركب فرساً وتناول بيده عود الفسطاط، فقاتل وقتل من القوم سبعة أو ثمانية، ثم استؤسر، فأتي به عمر بن سعد (لعنه الله) فأمر بضرب عنقه، فضربت عنقه، ورمي به إلى عسكر الحسين عليه السلام وأخذت أمه سيفه وبرزت، فقال لها الحسين عليه السلام: يا أم وهب! اجلسي فقد وضع الله الجهاد عن النساء، إنك وابنك مع جدي محمد صلى الله عليه وآله في الجنة.

---

(١) القصم: من يحطم كل ما يلقاه.

(٢) في نسخة: مصاهر.



ثم برز من بعده هلال بن حجاج وهو يقول:

أرمي بها معلمة أفواقها[1] والنفس لا ينفعها إشفاقها

فقتل منهم ثلاثة عشر رجلا ثم قتل (رضوان الله عليه).

وبرز من بعده عبدالله بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب، وأنشأ يقول:

أقسمت لا أقتل إلا حرا وقد وجدت الموت شيئا مرا

أكره أن أدعى جبانا فرا إن الجبان من عصى وفرا

فقتل منهم ثلاثة ثم قتل (رضوان الله عليه ورحمته).

وبرز من بعده علي بن الحسين الأصغر عليه السلام، فلما برز إليهم دمعت عينُ الحسين عليه السلام فقال: اللهم كن أنت الشهيدَ عليهم، فقد برز إليهم ابن رسولك، وأشبه الناس وجها وسمتا به، فجعل يرتجز وهو يقول:

أنا علي بن الحسين بن علي نحن وبيت الله أولى بالنبي

أما ترون كيف أحمي عن أبي

فقتل منهم عشرة، ثم رجع إلى أبيه، فقال: يا أبه العطشَ، فقال الحسين عليه السلام: صبرا يا بني، يسقيك جدك بالكأس الأوفى. فرجع فقاتل حتى قتل منهم أربعة وأربعين رجلاً، ثم قُتِل (صلى الله عليه).

وبرز من بعده القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام وهو يقول:

(١) الأفواق: جمع فوق، وهو مشق رأس السهم حيث يقع الوتر.

لا تجزعي نفسي فكل فان اليوم تلقين ذرى الجنان

فقتل منهم ثلاثة، ثم رمي عن فرسه (رضوان الله عليه وصلواته).

ونظر الحسين عليه السلام يميناً وشمالاً ولا يرى أحداً، فرفع رأسه إلى السماء، فقال: اللهم إنك ترى ما يصنع بولد نبيك.

وحال بنو كلاب بينه وبين الماء، ورمي بسهم فوقع في نحره، وخر عن فرسه، فأخذ السهم فرمى به، وجعل يتلقى الدمَ بكفه، فلما امتلأت لطخ بها رأسه ولحيته وهو يقول: ألقى الله عز وجل وأنا مظلوم متلطخ بدمي.

ثم خر على خده الأيسر صريعاً، وأقبل عدو الله سنان بن أنس الأيادي، وشمر ابن ذي الجوشن العامري (لعنهما الله) في رجال من أهل الشام حتى وقفوا على رأس الحسين عليه السلام، فقال بعضهم لبعض: ما تنتظرون؟! أريحوا الرجل!

فنزل سنان بن أنس الأيادي (لعنه الله) وأخذ بلحية الحسين عليه السلام وجعل يضرب بالسيف في حلقه وهو يقول: والله! إني لأحتز رأسك، وأنا أعلم أنك ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وخير الناس أباً وأماً!!

وأقبل فرس الحسين عليه السلام حتى لطخ عرفه وناصيته بدم الحسين عليه السلام، وجعل يركض ويصهل، فسمع بنات النبي صلى الله عليه وآله صهيله، فخرجن فإذا الفرس بلا راكب، فعرفن

أن حسيناً (صلى الله عليه) قد قتل، وخرجت أم كلثوم بنت الحسين عليه السلام واضعة يدها على رأسها، تندب وتقول: وا محمداه، هذا الحسين بالعراء، قد سلب العمامة والرداء.

وأقبل سنان (لعنه الله) حتى أدخل رأس الحسين بن علي عليه السلام على عبيد الله ابن زياد (لعنه الله) وهو يقول:

املأ ركابي فضة وذهبا إني[1] قتلت الملك المحجبا
قتلت خيرا الناس أما وأبا وخيرهم إذ ينسبون نسبا

فقال له عبيد الله بن زياد: ويحك! فإن علمت أنه خير الناس أباً وأماً، لم قتلته إذن؟! فأمر به فضربت عنقه، وعجل الله بروحه إلى النار.

وأرسل ابن زياد (لعنه الله) قاصداً إلى أم كلثوم بنت الحسين عليه السلام فقال لها: الحمد لله الذي قتل رجالكم، فكيف ترون ما فعل بكم؟ فقالت: يا بن زياد! لئن قرت عينُك بقتل الحسين عليه السلام فطالما قرَّت عينُ جده صلى الله عليه وآله به، وكان يقبله ويلثم شفتيه ويضعه على عاتقه. يا ابن زياد! أعدَّ لجده جواباً، فإنه خصمك غداً)[2].

أقول: النص ـ على وجازته ـ حكى منازلةً شرسةً بين مجموعتين؛ اختلفتا في العدة، والعدد، والمنطق، والقيم... اختلاف الحق والباطل، وتباينتا تباين الإيمان والكفر.



(١) في نسخة: أنا.
(٢) الأمالي للشيخ الصدوق، المجلس الثلاثون، ص٢١٥ ـ ٢٢٨.

ثم إن هذا النص مسندٌ أولاً، وينتهي إلى أهل البيت ﷺ؛ الذين هم أدرى بما فيه ثانياً، الأمر الذي يضفي عليه قيمةً إضافيةً.

شجاعة الإمام الحسين:

من المسلَّمات أن الإمام الحسين ﷺ تحلى بأعلى درجات الشجاعة، ولا عجب فهو ربيبٌ وابنٌ للإمام علي بن أبي طالب الذي ضُرب المثلُ بشجاعته حتى (شاع وذاع؛ بحيث لا ينكره إلا جاهل معاند)[1]، وهي الشائعة (في كل مصر وريف، ولا يحتاج في شهرتها إلى تعريف)[2].

وكنموذج على الشجاعة الحسينية ما رواه الشيخ الصدوق بإسناده عن أبي الجارود وابن بكير وبريد بن معاوية العجلي، عن أبي جعفر الباقر ﷺ، قال: (**أصيب الحسين بن علي ﷺ ووجد به ثلاثمائة وبضعة وعشرون طعنةً برمحٍ، أو ضمرةً بسيفٍ، أو رميةً بسهم. فروي أنها كانت كلُّها في مقدمه؛ لأنه ﷺ كان لا يولي**)[3]. ولا يفعل ذلك غير الشجعان.

---

(١) السبكي، تاج الدين، طبقات الشافعية، ج٢، ص٢٣٤.

(٢) اليافعي، عفيف الدين، مرآة الجنان وعبر اليقظان، ج١، ص٩٣.

(٣) الصدوق، محمد بن علي، أمالي الصدوق، المجلس الحادي والثلاثون، الحديث ١، ص١٢٦. وعنه بحار الأنوار، ج٤٥، تاريخ الإمام الحسين ﷺ، الباب ٣٧، الحديث ٧.

ولعل بعض النقول تفيد كم عانى أعداءُ الإمام الحسين عليه السلام منه ومن أصحابه الأبطال الشجعان؛ فقد: قيل لرجلٍ شهد يوم الطف مع عمر بن سعد: ويحك! أقتلتم ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله؟!

فقال: عضضتَ بالجندل[1]، إنك لو شهدتَ ما شهدنا لفعلت ما فعلنا، (**ثارت علينا عصابةٌ، أيديها في مقابض سيوفها كالأسود الضارية تحطم الفرسان يميناً وشمالاً، وتلقي أنفسَها على الموت، لا تقبل الأمانَ، ولا ترغب في المالِ، ولا يحول حائلٌ بينها وبين الورود على حِياض المنيَّة، أو الاستيلاءِ على الملك، فلو كففنا عنها رويداً لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها، فما كنا فاعِلِين لا أمَّ لك؟!**)[2].

وفي الجبهة الأخرى كان التعميمُ الرسميُّ الصادرُ من السلطة لأزلامها اللئام كالتالي:

كتب عبيد الله ابن زياد إِلَى عُمَر بن سَعْد: أَمَّا بَعْدُ، فإني لم أبعثك إِلَى حسينٍ لتكفَّ عنه وَلا لتطاوله، وَلا لتمنيه السلامة والبقاء، ولا لتقعد له عندي شافعاً.

انظر، فإن نزل حسينٌ وأصحابه على الحكم

(١) نوع من الحجارة.
(٢) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٣، ص٢٦٣.

واستسلموا، فابعث بهم إليَّ سِلماً، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلَهم وتمثِّل بهم، فإنهم لذلك مستحِقُّون.

فإن قُتِل حسينٌ فأوطئ الخيلَ صدرَهُ وظهرَه، فإنه عاقٌّ مُشاقٌّ، قاطعٌ ظلومٌ، وليس دهري في هذا أن يضر بعد الموت شيئاً، ولكن عليَّ قول لو قد قتلتَهُ فعلتُ هذا به إن أنتَ مضيتَ لأمرِنا فيه جزيناك جزاءَ السامع المطيع، وإن أبيتَ فاعتزل عملَنا وجندَنا، وخلِّ بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر، فإنا قد أمرناه بأمرنا، والسلام)[1].

فالنهج المعتمَد مع النهضة الحسينية؛ ممثَّلةً في الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه، هو الخشونة والقوة وليس اللينَ، ثم التسليم بل الاستسلام للسلطة حتى لو كانت ظالمةً طاغيةً، وإن امتنع الحسين عليه السلام الذي هو سبط الرسول صلى الله عليه وآله وابن علي والزهراء عليهما السلام، ومن معه، فاللازم: قتلُهم، والتمثيلُ بهم، ثم التنكيل بجسد الحسين عليه السلام بأن تطأ الخيل صدره وظهره.

فأي انحطاطٍ أخلاقيٍّ بلغه القوم؟! وأي بغض اعتمل في صدورهم تجاه من أحبه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله ومَن أمر

(١) تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، ج٥/ ٤١٥؛ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي، ج٥، ص٣٣٧؛ الإرشاد للشيخ المفيد، ج٢، ٨٦؛ المناقب، ج٤، ص٩٧؛ إعلام الورى ٢٣٥؛ بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٨٩.

رسول الله ﷺ بحبه، وتجاه من كان يتأذى الرسول ﷺ لمجرد بكائه؟!

نعوذ بالله من الخذلان والخسران.

وإليك - أخي القارئ - نموذجاً آخر من الانحطاط الأخلاقي في معسكر قتلة الإمام الحسين عليه السلام وخصوم آل محمد.

روى الشيخ الصدوق بإسناده عن عبدالله بن الحسن المثنى، عن أمه فاطمة بنت الحسين عليه السلام، قالت: دخلت الغاغة[1] علينا الفسطاط، وأنا جاريةٌ صغيرةٌ، وفي رجليَّ خلخالان من ذهب، فجعل رجلٌ يفض الخلخالين من رجليَّ وهو يبكي!

فقلت: ما يبكيك، يا عدو الله؟!

فقال: كيف لا أبكي وأنا أسلب ابنة رسول الله!

فقلت: لا تسلبني.

قال: أخاف أن يجيء غيري فيأخذه.

قالت: وانتهبوا ما في الأبنية حتى كانوا ينزعون الملاحف عن ظهورنا)[2].

(١) الأوباش والسفلة من الناس. وفي البحار [ج ٤٥/ ص ٨٢] عن الأمالي [العامة، أو الغانمة].

(٢) الصدوق، محمد بن علي، الأمالي، بقية مقتل الحسين عليه السلام، الحديث ٢، ص٢٢٩.

ولا عجب أن يجترح أولئك الأوباش هذا الفعلَ الدنيءَ؛ وهم الذين تخلوا عن كل ما كان يحول بينهم وبين الدناءة؛ حتى أنهم هجموا على مخيم النساء لما سقط الإمام الحسين عليه السلام على الأرض؛ بعد أن أثخنته الجراحات، فخاطبهم عليه السلام بقوله:

(ويحكم يا شيعة آل أبي سفيان! إن لم يكن لكم دينٌ، وكنتم لا تخافون المعادَ؛ فكونوا أحراراً في دنياكم، وارجعوا إلى أحسابكم؛ إذ كنتم أعراباً.

فناداه شمر؛ فقال: ما تقول يا ابنَ فاطمة؟

قال: أقول أنا الذي أقاتلكم وتقاتلوني، والنساءُ ليس عليهن جناحٌ؛ فامنعوا عتاتكم عن التعرض لحرمي ما دمت حياً)[1].

وقد بالغوا في لؤمهم حتى أنهم بعد أن قتلوا الإمامَ الحسينَ عليه السلام (انتهبوا سلبه. فأخذ قيس بن الأشعث عمامتَه، وأخذ آخرُ سيفَهُ، وأخذ آخرُ نعلَيه، وآخرُ سراويلَهُ، ثم انتهبوا مالَه)[2]. فلسنا أمام خلاف سياسي انتهى بمقتل معارض كان له رأي مغاير لما تتبناه السلطة، بل أمامَ جحافل من الناس لا ترى في هذه الثلة سوى خصوم لا حق لهم في الحياة ولا حرمة لهم يصان معه المال والنساء.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٥، ص٥١.

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٥، ص٣٤١.

ثم إن الملاحظ أن هؤلاء القتلة كانوا يعرفون الحسين عليه السلام حق المعرفة، ومع أقدموا على فعلهم المناسب لطبيعتهم و ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء/ ٨٤]، حتى قال قائلهم[1]:

أوقر ركابي فضة وذهبا فقد قتلت السيد المحجبا
قتلت خير الناس أما وأبا وخيرهم إذ ينسبون نسبا

وقد نهر عمرُ بن سعد هذا القائلَ ولامه؛ بقوله: (**يا مجنون! تتكلم بهذا الكلام؟!**)[2]. والظاهر أن لومه لم يكن بداعي احترام الإمام الحسين عليه السلام، بل لأن في ذلك إدانةً لمجموع القتلة؛ ومنهم عمرُ هذا.

ويؤكد ما نقول أنه قال بعد ذلك مباشرة ـ كما يرويه ابن الجوزي نفسه ـ : (**من يوطئ فرسه الحسين؟!**). ومن يصدر منه هذا الأمر لا يحمل في قلبه سوى الغل والحقد ولا يتحلى بغير الرذيلة والدناءة.

وقد استمرت الدناءة الأخلاقية إلى ما بعد المعركة القتالية، فكان السبي وآلامه، والإذلال للسبايا، والتطاول عليهم وعلى الرؤوس الشريفة بالفعل والقول. فقد روى حاجب عبيد الله بن زياد (أنه لما جيئ برأس الحسين عليه السلام أمر فوُضِع بين يديه في طست من ذهب، وجعل يضرب

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٥، ص٣٤١.
(٢) م ن.

بقضيب في يده على ثناياه ويقول: لقد أسرع الشيب إليك يا أبا عبدالله!

فقال رجلٌ من القوم[1]: مه، فإني رأيت رسول الله ﷺ يلثم حيث تضع قضيبك.

فقال: يوم بيوم بدر.

ثم أمر بعلي بن الحسين عليه السلام فغُلَّ، وحُمِل مع النسوة والسبايا إلى السجن، وكنتُ معهم. فما مررنا بزقاقٍ إلا وجدناه مُلِئ رجالاً ونساءً، يضربون وجوههم ويبكون، فحبسوا في سجن وطُبق عليهم.

ثم إن ابن زياد (لعنه الله) دعا بعلي بن الحسين عليه السلام والنسوةِ، وأحضر رأس الحسين عليه السلام، وكانت زينب بنت علي عليه السلام فيهم، فقال ابن زياد: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم، وأكذب أحاديثكم!

فقالت زينب: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد وطهرنا تطهيراً، إنما يفضح الله الفاسقَ ويكذب الفاجرَ.

قال: كيف رأيت صنع الله بكم أهل البيت؟

قالت: كتب عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتتحاكمون عنده.

---

(١) يستفاد من بعض الروايات أنه الصحابي زيد بن أرقم؛ مثل تاريخ ابن الوردي ١/ ٦٤، ومن بعض الروايات أنه الصحابي أنس بن مالك؛ مثل البداية والنهاية ١١/ ٥٥٤.

فغضب ابن زياد (لعنه الله) عليها، وهمَّ بها، فسكَّن منه عمرو بن حريث.

فقالت زينب: يا بن زياد! حسبك ما ارتكبتَ منا، فلقد قتلتَ رجالَنا، وقطعتَ أصلَنا، وأبحتَ حريمَنا، وسبيتَ نساءَنا وذرارِيَنا، فإن كان ذلك للاشتفاء فقد اشتفيت.

فأمر ابنُ زياد بردِّهم إلى السجن، وبعث البشائرَ إلى النواحي بقتل الحسين عليه السلام. ثم أمر بالسبايا ورأس الحسين عليه السلام فحُمِلوا إلى الشام.

فلقد حدثني جماعة كانوا خرجوا في تلك الصحبة: أنهم كانوا يسمعون بالليالي نوحَ الجن على الحسين عليه السلام إلى الصباح، وقالوا: فلما دخلنا دمشق أدخل بالنساء والسبايا بالنهار مكشَّفات الوجوه.

فقال أهلُ الشام الجفاةُ: ما رأينا سبايا أحسن من هؤلاء، فمن أنتم؟

فقالت سكينة بنت الحسين عليه السلام: نحن سبايا آل محمد.

فأُقِيموا على درج المسجد حيث يقام السبايا، وفيهم علي بن الحسين عليه السلام، وهو يومئذ فتى شابٌّ، فأتاهم شيخٌ من أشياخ أهل الشام، فقال لهم: الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم وقطع قرن الفتنة. فلم يألُ عن شتمهم، فلما انقضى كلامه، قال له علي بن الحسين عليه السلام: أما قرأت كتاب الله عز وجل؟

قال: نعم.

قال: أما قرأت هذه الآية ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1]؟!

قال: بلى.

قال: فنحن أولئك.

ثم قال: أما قرأت ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[2]؟

قال: بلى.

قال: فنحن هم.

قال: فهل قرأت هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[3]؟!

قال: بلى.

قال: فنحن هم.

فرفع الشاميُّ يدَه إلى السماء، ثم قال: اللهم إني أتوب إليك. ثلاث مرات، اللهم إني أبرأ إليك من عدو آل محمد، ومن قتلةِ أهل بيت محمد، لقد قرأتُ القرآنَ فما شعرتُ بهذا قبل اليوم.

ثم أدخل نساء الحسين عليه السلام على يزيد بن معاوية، فصِحن نساءُ آل يزيد وبنات معاوية وأهله، وولولنَ وأقمنَ

(١) الشورى/ ٢٣.
(٢) الشورى/ ٢٦.
(٣) الأحزاب/ ٣٣.

المأتمَ، ووُضِع رأس الحسين عليه السلام بين يديه، فقالت سكينة: واللهِ! ما رأيتُ أقسى قلباً من يزيد، ولا رأيتُ كافراً ولا مشركاً شراً منه ولا أجفى منه.

وأقبل يقول وينظر إلى الرأس:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

ثم أمر برأس الحسين عليه السلام، فنُصِب على باب مسجد دمشق.

فروي عن فاطمة بنت علي عليه السلام، أنها قالت: لَمَّا أُجلسنا بين يدي يزيد بن معاوية رق لنا أول شيء وألطفنا، ثم إن رجلاً من أهل الشام أحمرُ قام إليه، فقال: يا أمير المؤمنين، هب لي هذه الجارية. يعنيني، وكنت جاريةً وضيئةً، فأرعبت وفَرِقت[1]، وظننتُ أنه يفعل ذلك، فأخذت بثيابِ أختي، وهي أكبر مني وأعقلُ، فقالت: كذبتَ واللهِ ولعنتَ، ما ذاك لك ولا له.

فغضب يزيد (لعنه الله) فقال: بل كذبتِ واللهِ، لو شئتُ لفعلتُهُ.

قالت: لا واللهِ، ما جعل الله ذلك لك، إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا.

(١) أي: خِفت بشدة.

فغضب يزيدُ (لعنه الله)، ثم قال: إياي تستقبلين بهذا؟! إنما خرج من الدين أبوك وأخوك.

فقالت: بدين الله ودين أخي وأبي وجدي اهتديتَ أنت وجدُّك وأبوك.

قال: كذبتِ يا عدوةَ الله.

قالت: أميرٌ يشتم ظالماً ويقهر بسلطانه!

قالت: فكأنه (لعنه الله) استحيى فسكتَ، فأعاد الشاميُّ (لعنه الله) فقال يا أمير المؤمنين! هب لي هذه الجارية.

فقال له: اغرب[1]، وهب الله لك حتفاً قاضياً).

❁ ❁ ❁

(١) أي: تنح وابتعد.

مسك الختام

في خاتمة هذه القراءة أسجل ما خطته يراع الأديب خالد محمد خالد ملخصاً أسباب خلود النهضة في جوهرها الأخلاقي وهو (التضحية والبذل)، فقال:

في واقعة كربلاء هذه، يتألق ذلك المغزى تألق النهار.

فإذا كانت في شكلها الخارجي تبعث الأسى والحزن، فإنها في جوهرها العظيم تستجيش كل ما في النفس البشرية من إعجاب وإجلال.

إنها تبدو، وكأنها مهرجان للحق بالغ الروعة!!

وتبدو، وكأنها عيد للتضحية نادر المثال!!

إن المسلمين يحتفلون كل عام مرة بعيد الأضحى، ويسمونه (العيد الأكبر).. فماذا كانت مناسبة هذا العيد في التاريخ..؟ كانت مناسبته التضحية.. ولا شيء سواها..

فخليل الرحمن (إبراهيم) أراد القدر أن يلقن البشرية عن طريقه درساً ليس كمثله درسٌ في تقديس مشيئة الله وتلبية ندائه وأمره، فدعاه أن يذبح ولده فسارع من فوره وشحذ سكينه وتل ولده للجبين.. وفي اللحظة الباهرة ملأ الوحي

روعه وفؤاده ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات/ ١٠٤ ـ ١٠٦]!!

فهل اتخذ الإسلام من تلك المناسبة عيداً، لأن الله افتدى (إسماعيل) بذبح عظيم..؟!

كلا، فلقد كان سيحتفل بها أيضا لو انتهى الأمر إلى أن يكون (إسماعيل) بذبح عظيم..؟!

كلا، فلقد كان سيحتفل بها أيضا لو انتهى الأمر إلى أن يكون (إسماعيل) الذبيح والقربان..

ذلك أن الإسلام يحتفل بمضمون الموقف وجوهره ـ التضحية بأعز شيء.. في سبيل رب كل شيء، وإله كل شيء..!!

ولقد وقف (الحسين) وأهله وأصحابه من أجل الحق موقفا استحق ببطولاته وتضحياته أن يكون للتضحية عيدا، أي عيد..!!

لقد رفضوا الباطل، واختاروا الحق..

ثم رفضوا الصمت، وآثروا المقاومة..

ثم رفضوا المساومة، وصمدوا مع إيمانهم)[1].

(أجل.. هذا دور آل محمد في الحياة.. التضحية، بكل ما تتطلبه من شظف، وتبتل، واستغناء..

لا شيء دون التضحية، ولا شيء سواها...

---

(١) محمد خالد، خالد، أبناء الرسول في كربلاء، ص١٦٣.



أما الدنيا بكل زينتها وزخرفها وإغرائها، فهي أهون على الله من أن يجعلها لهم مثوبة وأجرا..!!

إن عليهم في هذه الحياة أن يقوموا بدور واحد. عليهم أن يقضوا أعمارهم كلها فوق «منصة الأستاذية»، ليعلموا الناس فنا واحدا.. هو فن التضحية والفداء. أروع وأصدق ما تكون التضحية، ويكون الفداء..!!!)[1].

***

وبهذا نختم بحثنا الوجيز هذا، بعد أن ألقينا الضوء بلمحة، سريعةٍ وخاطفةٍ، عن البعد الأخلاقي للنهضة الحسينية المباركة، وما يقابلها من دناءةٍ وانحطاطٍ أخلاقيين عند مَن خاصمها، راجين أن تسهم هذه القراءةُ في ما يجب علينا أن نكون عليه في جميع خطواتنا في ما يتعلق بذواتنا وبغيرنا من أوليائنا وأعدائنا على السواء، وأن تكون إسهاماً متواضعاً في الانتصار للنهضة الحسينية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

السيد حسن النمر الموسوي

الدمام/ المملكة العربية السعودية

شوال ١٤٣٥هـ ـ تموز ٢٠١٤م



(١) محمد خالد، خالد، أبناء الرسول في كربلاء، ص١٧.

ثبت المصادر

١ ـ أبناء الرسول في كربلاء، خالد محمد خالد، المقطم للنشر والتوزيع، سنة الطبع: جمادى الآخر ١٤٢٥هـ ـ يوليو ٢٠٠٤م.

٢ ـ إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، الناشر: دار المعرفة ـ بيروت

٣ ـ الآحاد والمثاني، ابن أبي عاصم، تحقيق د باسم فيصل الراية، نشر دار الراية ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٤ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله القرطبي، تحقيق علي محمد البجاوي، الناشر دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٥ ـ أمالي الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن بابويه؛ المعروف بالصدوق، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

٦ ـ البدع والنهي عنها، أبو عبدالله محمد بن وضاح بن بزيع المرواني القرطبي، تحقيق ودراسة: عمرو عبد المنعم سليم، الناشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة ـ مصر، مكتبة العلم، جدة ـ السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٧ ـ تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري، وصلة تاريخ الطبري



لعريب بن سعد القرطبي، الناشر دار التراث ـ بيروت، الطبعة الثانية ـ ١٣٨٧هـ.

٨ ـ التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، الناشر دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة، الطبعة ١٣٨٣هـ.

٩ ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، الناشر وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب، عام النشر ١٣٨٧هـ.

١٠ ـ جامع السعادات، ملا محمد مهدي النراقي، تحقيق وتعليق: السيد محمد كلانتر/ تقديم: الشيخ محمد رضا المظفر، الطبعة الرابعة، المطبعة: مطبعة النعمان ـ النجف الأشرف، الناشر: دار النعمان للطباعة والنشر

١١ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني، الناشر السعادة ـ بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

١٢ ـ الاستذكار، يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١ ـ ٢٠٠٠م.

١٣ ـ شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، الناشر دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.

١٤ ـ صحيح الجامع الصغير وزياداته، محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى سنة ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي.

١٥ ـ طبقات الشافعية، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، تحقيق د. محمود محمد الطناحي ـ د. عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

١٦ ـ الطبقات الكبرى، أبو عبدالله محمد بن سعد، تحقيق إحسان عباس، الناشر دار صادر ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.

١٧ ـ الفتوح، أحمد بن أعثم، تحقيق علي شيري، طبعة دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

١٨ ـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن [تفسير الثعلبي]، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى سنة ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٩ ـ نهاية المرام في علم الكلام، الحسن بن المطهر؛ العلامة الحلي (المتوفى (سنة ٧٢٦هـ)، تحقيق: فاضل العرفان، إشراف: الشيخ جعفر السبحاني، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٤١٩ ه / قم، المطبعة: اعتماد ـ قم، الناشر: مؤسسة الامام الصادق عليه السلام.

٢٠ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، أبو محمد عفيف الدين عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي، وضع حواشيه: خليل المنصور الناشر دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٢١ ـ مسند الإمام أبي حنيفة رواية أبي نعيم، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني (المتوفى سنة ٤٣٠هـ)، تحقيق: نظر محمد

الفاريابي، الناشر: مكتبة الكوثر ـ الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٢٢ ـ مسند الإمام الشافعي، محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى سنة ٢٠٤هـ)، رتبه على الأبواب الفقهية: محمد عابد السندي، عرَّف للكتاب وترجم للمؤلف: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، تولى نشره وتصحيحه ومراجعة أصوله على نسختين مخطوطتين: السيد يوسف علي الزواوي الحسني، السيد عزت العطار الحسيني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، عام النشر: ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م.

٢٣ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ـ عادل مرشد، وآخرون، إشراف د عبدالله بن عبد المحسن التركي، الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

٢٤ ـ المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

المحتويات